

نيكوس كازانتزاكيس

رحلة إلى مصر

الوادي وسيناء

ترجمة: محمد الظاهر / منية سمارة



00117013

Bibliotheca Alexandrina

كتاب

أدب ونقد

سلسلة فصلية

تعنى بالابداع المتميز والمعرفة

التقدمية الجديدة

تصدرها مجلة «أدب ونقد»

حزب التجمع الوطنى

التقدمى

الوحدوى

[]

رحلة إلى مصر

(الوادي وسيناء)

تأليف: نيكوس كازانتزاكيس

ترجمة: محمد الظاهر ومنيرة سمارة

سلسلة كتاب أدب ونقد

الكتاب الأول

الطبعة الأولى / شتاء ١٩٩١

٢٣ ش عبد الخالق ثروت / القاهرة / مصر

ت: ٣٩٣٩١١٤ / ٣٩٢٢٣.٦ / ٣٩٢٢٤.٨

رحلة إلى مصر (الوادي وسيناء)

نيكوس كازانتزاكيس

ترجمة

محمد الظاهر

منية سمارة

تقديم

«كتاب أدب ونقد»:

حلم يتحقق

فريدة النقاش

«كتاب أدب ونقد» حلم قديم من أحلامنا الكثيرة الطموحة وقف عجزنا الهالى فى طريقه كما وقف دائماً فى طريق أحلامنا. فنحن نعيش فى زمن ردىء بكل المقاييس تحكمنا فيه رأسمالية هشة وتابعة تستورد لنا كل أزمات المجتمع الرأسمالى المتقدم والمهيمن عالمياً، دون الوفرة فيه.. وهكذا أصبح الحد الأدنى لاقامة أى مشروع ثقافى جدى قادر على أن يغطى تكلفته ويواصل النمو، متزايداً كل يوم بصورة تتجاوز كل رغباتنا المخلصة فى العطاء، وكل قدرات أصدقائنا وقرائنا على التبرع.

وضعنا تصوراتنا عن طبيعة السلسلة والدور المرجو لها أكثر من مرة فى مجلس تحرير مجلتنا «أدب ونقد»، وفى كل مرة كنا نتيبن بصورة أكثر جلاءً أن مانشده ليس إضافة كمية للسلسلة القائمة، وكتبنا ذلك فى إفتتاحيات المجلة كلما وجدنا أنفسنا أمام مبدع جديد نريد أن نقدمه ونحتفى به على نطاق واسع مثلما كان الحال مع الروائى «أحمد زغلول الشيطى» الذى اضطرننا لنشر روايته الهامة «ورود سامة لصقر» فى عدد من المجلة وكنا نتمنى أن ننشرها فى كتاب مستقل، ورواية أخرى لم ننشرها بعد لرضا البهات هى «رائحة اليوسفى»، وحدث نفس الشئ مع الشاعر أحمد أبو زيد الذى اخترنا له قصيدتين من ديوانه- غير المنشور- لعددنا الخاص بالشعر، إذ وجدنا فيه صوتاً خاصاً واعداً لن يكتفى إلا مع النشر الواسع للتعرف الحقيقى على عمله، ومن المؤكد أن هناك كثيرين آخرين لا نعرفهم ويستحقون أكثر.

ظل مشروعا على ما هو عليه، حلما ينبعث كلما وجدنا أنفسنا أمام عمل جديد نود أن نحسنى به وننشره، إلى أن قرأ الأديب العراقي المهاجر لأمریکا «محمد رستم» واحدة من افتتاحيات «أدب ونقد» التي تتحدث عن مشروع الكتاب، وفي زيارة لمصر عرض مشكورا أن يدفع تكلفة الكتاب الأول إلى أن تقسيم السلسلة فتد له أمواله، وفي حالة تعثرها يعتبر إسهامه تبرعا، في نفس الوقت قدم لنا الباحث والشاعر الفلسطيني محمد الظاهر ترجمته لهذا الكتاب الذي بين أيديكم لكازنتزاكيس ومعها مبلغ من المال، فقط لأنه يريد أن ينشر ترجمته في مصر. فأصبحنا نقف حاليا على أرض معقولة لكي نبدأ..

هل أنتم معنيون بمثل هذه التفصيلات أم بالكتاب نفسه.. وتحديدًا بالبداية؟ نحن نود من كل قلوبنا أن تعتبروا أنفسكم طرفا معنيا كل العناية بحلما الذي هو ببساطة الإسهام بصورة جديدة ومنظمة في انشاء مكتبة أدبية فكرية تقدمية وشعبية في أن واحد على أن يكون العنصر الأخير.. أي الشعبي أساسيا فيها..

صحيح أن هناك سلاسل شعبية تباع ربما بأقل من سعر التكلفة، مثل مختارات فصول وإشراقات أدبية وكتاب الثقافة الجماهيرية.. لكننا كما سبق القول لانخطط لكي تصبح سلسلتنا إضافة كمية فقط، وإغا إضافة نوعية أيضا. فهناك مواد أساسية وأمهات كتب في ميداني النقد والفكر يطمح «كتاب أدب ونقد» إلى تقديمها بالمواصفات السابقة، إضافة للإبداع الجديد الجريء فنيا وسياسيا شأن رواية الشيطاني التي رفضتها مختارات فصول بسبب مضمونها السياسي الواضح والذي جرت معالجته بأرقى صورة فنية حتى أن حركة النقد الجديدة تؤرخ بها لولادة رواية جديدة تماما.

كذلك تتواصل الدراسات النقدية في ميادين علم إجتماع الأدب واللغويات وعلم الجمال الماركسي، وما يزال ما يصلنا منها جزئيا ومبعثرا بينما تغيب جل الكتابات الأساسية في هذه الميادين عن النشر الشعبي الواسع.

ونحن نعتقد أن مثل هذا النشر الذي نطمح اليه سوف يشجع مثات الباحثين الذين يستخدمون المنهج العلمي الموضوعي المادي التاريخي أي التكامل بالضرورة وبطبيعته، يشجعهم على تقديم إضافاتهم عن تاريخ

الأدب وأجناسه وتطور الشكل والنقد التطبيقي . . الخ، في الأدبين المصري والعربي مسترشدين بما نقدمه من أمهات النصوص وحتى من بعض الكلاسيكيات التقدمية في الأدب والنقد والفكر والتي لم تنشر أبداً نشرًا شعبيًا، يجعلها في متناول قدرة جمهرة القراء البسطاء، ويجعلنا قادرين على الاستمرار معها.

* * *

أما كتابنا هذا الذي ينشر بالعربية لأول مرة رغم الانتشار الواسع لأعمال هذا الروائي والشاعر الفذ «نيكوس كازانتزاكيس»، فإنه إنما يزكى نفسه بالبلاغة الخاصة التي ينطوي عليها مجمل عمل الكاتب والقدرات الروائية الفذة في أدب الرحلات الذي ينتمي إليه هذا الكتاب والذي برع فيه كازانتزاكيس، وهو يزكى نفسه مرة أخرى بسبب هذا الولع بحضارة مصر وروحها وشعبها في الوادي وسيناء.

رغم عدم معرفته الجيدة بطبيعة هذا الشعب في سياق التطور التاريخي الذي تشكلت فيه خصوصيته ولامح وجدانه، وهي نظرة مثالية جعلت كازانتزاكيس يصف هذا الشعب أحياناً بالخطيئة، ويتخيل وجود فروق عرقية بين الوجه البحري والوجه القبلي وأصفا سكان الصعيد بالملونين. وقد أجرينا مناقشة واسعة حول أربع قضايا يثيرها الكتاب بالإضافة للملاحظة السابقة:

الأولى تخص العنوان الذي وضعه الكاتب على هذا النحو «مصر وسيناء» إتساقاً مع فصل واضح استنته عبر الكتاب كله يعالج سيناء باعتبارها شبه جزيرة مستقلة لا علاقة لها بمصر، مما يؤكد عدم معرفته الدقيقة بالتاريخ والجغرافيا في المنطقة منذ قديم الزمان، حيث كانت سيناء - حتى في الأساطير التوراتية التي يعود إليها كثيراً - جزءاً لا يتجزأ من مصر.

ولذا غيرنا إسم الكتاب إلى «رحلة إلى مصر: الوادي وسيناء» وتتعلق القضية الثانية، بما يمكن تسميته بالروح اليهودية التي تشبع بها الرحلة اعتماداً على الأساطير والحكايات التوراتية المثيرة وما يمكن أن توحى

به من تأكيد الخرافة الحق التاريخي لليهود في فلسطين، تلك الخرافة التي
إستندت عليها معنويا وثقافيا عملية إغتصاب فلسطين من قبل الاستعمار-
والصهيونية.

لكن كازنتزاكيس قام برحلته تلك قبل نشوء دولة إسرائيل بعشرين عاما،
أى قبل أن تتحول هذه الأساطير فعليا لأدوات بطش وإرهاب.. وتزييف
للوعى وللحقائق التاريخية والجغرافية والوطنية في المنطقة.

وتتصل القضية الثالثة بحديثه عن الرب، فمن الواضح أن كازانتزاكيس،
شأنه شأن عدد من كبار الكتاب في عصرنا وفي أماكن مختلفة من العالم، هو
لاديني، ولذا يعالج مسألة الألوهية علاجاً أدبيا وفنيا يمكن بطبيعة الحال أن
يشير علينا المتزمتين والذين يعطون لأنفسهم تفويضا بمحاكمة الضمائر
والعقول.

وقد آثرنا أن نواجه العاصفة بدلا من أن نحذف جملة واحدة من عمل هو
حق لكاتبه الذى رحل عن دنيانا.

أما القضية الرابعة فتتعلق بالأولى ألا وهى عدم معرفة كازانتزاكيس
بالتاريخ المصرى القديم معرفة كافية، وهو ما جعله يقع فى خطأ ربما يدرج
عمله هذا فى عداد التعصب القومى لأهله اليونانيين، وهو القول بأن بعض
عناصر الحضارة والفلسفة المصرية القديمة قد إنتقلت إلى مصر من اليونان،
(ولذلك فلم ير الاسكندرية إلا مدينة يونانية)، وهى المغالطة التى دعتة أكثر
من مرة للتعبير الحار عن الفخر بأهله.. وحقيقة الأمر أن العكس هو الصحيح
تاريخياً وعلمياً.

وإذا نكتفى بالإشارة إلى هذه القضايا الأربع الاشكالية آملين أن تشير
حوارا خلافا بين المعنيين والقراء، لانيدها أن تكون مصادرة على المتحة
الروحية الخالصة والعميقة التى يولدها هذا النص الفريد، وتفتح «أدب ونقد»
صفحاتها لهذا الحوار حول القضايا المذكورة وغيرها، عسى أن يساعدنا
الكتاب ومناقشته على إعادة تأكيد الأسس العلمية لبعض مسلمات شائعة
حول تاريخ مصر وثقافتها.

مقدمة المترجمين

يوميّات هذه الرحلات التي يتألف منها كتاب (ترحال)، كتبها {نيكوس كازانتزاكيس} بين عامي ١٩٢٦ و ١٩٢٧ للجريدة اليونانية (اليغثيروس لوغوس) التي كانت قد دفعت له تكاليف السفر كي يزور الأراضى المقدسة فى اعياد الفصح عام ١٩٢٦، وكى يزور مصر فى السنة اللاحقة.

وقد نشرت الطبعة الاولى من (ترحال) فى الاسكندرية عام ١٩٢٧، لكن (كازانتزاكيس) لم يكن راضيا عن هذه الطبعة التي وصفتها السيدة [هيلين كازانتزاكيس] بانها ليست (كازانتزاكسية) ابدا، فقد نشرت بهال (كاثاريغيوسا) او اللغة الاغريقية الصافية بصيغة ولغة الصحافة الفجة، وحين اتم (كازانتزاكيس) الاعمال التي سيتألف منها المطبوع، اعاد كتابة (ترحال) من جديد بما يعرف بالاغريقية الشعبية مستبدلا لغة ال (كاثاريغيوسا) المصطنعة بتعابير وكلمات يونانية بسيطة واسعة الانتشار، وقام بمراجعات جديدة، وأضاف فصلا عن (موريا). اما الطبعة الجديدة المنقحة فقد نشرت فى اليونان عام ١٩٦١، بعد وفاة الكاتب، لذلك فان المقالات التي تشتمل عليها هذه الترجمة مأخوذة من آخر طبعة منقحة للكاتب.

ونحن ندرك ان هذا الكتاب سيحظى باهتمام خاص، من قبل القارىء المعاصر لانه يكشف عن الحدس النبوى فى نظرة كازانتزاكيس لهذه البلاد،

فهو فى فترة مبكرة، اى منذ عام ١٩٢٧ استطاع ان يستشف ان قدر الغرب ينتقل الى الشرق، وان مصر ستبرز كقوة متميزة فى العالم.

كتبت هذه المقالات بصيغة المتكلم، بصورة أصالية مباشرة وطرية، ولو انها مضطربة احيانا، لان المؤلف لم يتقصد اعطاءها شكلا فنيا، ومع ذلك فقد اشتملت هذه المقالات البسيطة والمباشرة على افكار ذات نظرة ثاقبة وعصيفة للتاريخ، وكشفت لنا عن مصر فى منتصف العشرينات، وهى تشهد نمو بذور الثورة فى هذا الشعب الذى عرف على الدوام بانه سلس القيادة وشديد الخضوع لاسياده. فمن خلال وصفه للفلاح العربى وهو يجرى المياه من النيل بنفس القادوس البدائى الذى كان يستخدمه اجداده الاوائل، يرينا [كاز انتراكيس]، الانسان العربى كإنسان لا ينفصل ابدا عن ماضيه.

ان وصفه الواقعى هذا، عمل فريد ونادر قلما يخرج عن الحتمية التاريخية. لقد نظر الى هؤلاء الناس والى هذه البلاد، نظرة شاملة تعتمد دمج الماضى فى الحاضر، من اجل تصوير شكل المستقبل، ومن اجل تحديد صورة العصر القادم، تصوير شكل المستقبل، ومن اجل تحديد صورة العصر القادم. عصر الثورة.

هذه النظرة الشاملة تسير جنبا الى جنب مع الوصف السهل الممتنع الساحر لهذا العالم الملموس، وللواقعية المعاصرة التى تكمن تحت سطحه، والتى تكشف عن نهوض الشعوب الشرقية:

«بيطء ولكن بشكل اكيد، اخذت الوحدة الهائلة بين المسلمين تتشكل... من مراکش حتى الصين، ومن تركستان حتى الكونغو... فالشعوب الشرقية تسير بخطى واسعة الى الامام»

ان هذه المقالات تكتسب فرادتها من خلال الاراء الانية حول الاماكن والناس، والتى تطورت فيما بعد لتصبح اللبنة الاساسية فى العديد من اعمال المؤلف اللاحقة وبشكل خاص عمله القريب الى السيرة الذاتية (تقرير الى غريكو) الذى تأثر فيه، فى اكثر من مكان، بوصفه الرائع لـ (سيناء) كذلك

فان الاستلهامات المأخوذة من (سيناء) تكررت اكثر من مرة فى اعمال مثل (الامتحان الاخير للمسيح) و (الوجد اليونانى) و (الحرية او الموت).
لقد اثرت خبرات وتجارب السفر على العديد من اعماله العظيمة. كما فى (ارديسيوس العصر) وفى موسى ايامنا المعاصرة (زوريا) ذلك الجريء المقدم بوصاياها العشر الجديدة وغيرها. كذلك فقد ساعدت على تأطير فلسفته التى كشف عنها بوضوح فى (مخلصو الرب) وفى (المأدبة)، احد اعماله المبكرة التى اكتشفت اخيرا.

لقد كانت الرحلات ذات قيمة كبيرة واهمية بالغة لانها كانت مصدرا للابداعات الخلاقة لـ [كاز انتزاكيس] فالشرق بالنسبة له. يشكل مصدر جذب سحرى، فهو كانسان كريتى يشعر بصلة القرابة مع هذا الجزء من العالم، ويرغب ان يؤكد ايمانه بأن اجداده يجرى فى عروقهم الدم البدوى العربى.
فاليوميات الخاصة بمصر وسيناء التى يشتمل عليها هذا الكتاب، كانت ملهمته اكثر من اية كتابات اخرى، فى الجزء الأكبر من اعماله الابداعية.

محمد الظاهر/ منية سمارة

هذه الفصول عن مصر وسيناء جزء من كتاب (توحيات)، الذى يشتمل على فصول عن فلسطين، وقبرص، وإيطاليا، وموريتانيا، وقد نشرت النصوص الخاصة بفلسطين فى كتاب خاص صدر عن دار خلدون للنشر بعمان عام ١٩٩٠

النيل

حين اقتربنا، أخيراً، من منطقة الخلدجان الواسعة للنيل والبحر، منطقة الدلتا، البقعة الخضراء العظيمة. كما كانت تسمى في الهيروغليفية، كانت تلك البقعة على وشك استعادة خضرتها، وكانت الاغنية القديمة التي حفظت لنا من زمن الفراعنة، تتغلغل الى شغاف قلبي.

نحن مغمورون، شئنا ذلك ام أبينا، بهذا القلق المرعب لازمتنا، ومن المستحيل الآن على اى كائن حي ان يرتحل وهو خالى البال كسائح، اذاً، ما هي القيمة المباشرة للآهرامات والمومياءات الذهبية ومعابد الكرنك العملاقة، وتمثيل الملوك المصنوعة من الجرانيت، ما قيمة كل ذلك بالنسبة لنا؟ وكيف يمكن لنا ان نتوقع ان تملكنا الرغبة فى الاستمتاع بشك البساطة، دون ان ننظر بدهشة وحيرة الى هاتين الحليتين الرائعتين اللتين تزينا هذه الاماكن، وهما النخلة والجمل؟ وفى ليل الصحراء، تمددت قرب النار، وانا احاول الاستماع الى الاف الانفاس الغامضة الغنائية للبرية، كل هذه الاصوات الرومانسية كانت ضائعة فى لجة اصوات المدينة المأهولة المعذبة التي انغrust فى اعماق قلبي قبل ان انطلق.

اننا نعيش فى عصر ذى صرخة خاصة، بامكانها اخماد كل الاصوات المرحية الرائعة للجمال والحكمة، هذه الاصوات التي اصبحت غير ذات جدوى لمتطلبات الحياة اليومية المعاصرة. انها مصر اخرى، غير التي كنا قد رأيناها قبل الحرب العالمية، ذلك الخط الدموى العظيم الذى ينقسم الى حقتين، فى قلوبنا، وهى ايضاً مصر غير التي تحملها عيون الانسان المعاصر، هذه الايام. فالحرب لم تغير مصر فقط، لكن، وهذا هو الالم. هو ان عيناً جديدة قد اخترعت.

وهكذا، فإننى اليوم، وأنا انظر الى مجرى النيل العميق المنخفض والخصب،
اجد نفسى افكر فجأة، وبلا ارادة، بالتخلي عن كل التصورات السابقة حول
الجواهر الذهبية، والألوان، والراقصين المصريين الشباب، والفراعنة المنتصرين،
والآلهة العظيمة، وكنت اسمع صوتاً ينبثق من الرجال، مثل صوت الفلاح،
صوت حاد ورتيب، صرخة مرعبة، أذلية، معاصرة لشاعر كادح مجهول من
مكفيس:

«لقد رأيت! رأيت!»

رأيت! رأيت الحدادين امام النار وقد تجعدت اصابعهم مثل جلد التمساح،
وانبعثت منها رائحة بيض السمك رأيت المزارعين بالامهم المبرحة فى الحقول،
وهم يواصلون العمل فى الليل، فى الوقت الذى يتوجب عليهم فيه أن يخلدوا
للمراح.

رأيت الخلاق وهو يقص الشعر طوال النهار، يتنقل من بيت لآخر، بحثاً عن
الزبائن وهو يبلى يديه من اجل ملء معدته.

رأيت المرضى ينتظرون عودة البناء الآجرى، الذى يكدح تحت الشمس طوال
النهار، ويتسلق العوارض الخشبية، وسطوح المنازل، ويعود فى الليل الى بيته
ليضرب اطفاله.

رأيت النساج يعانى الفقر فى معمله، ركبتاه تنعمرسان فى بطنه، يتنفس
الهواء الملوث، وعليه ان يرشو الحارس، كى يستطيع رؤية ضوء النهار. رأيت
ساعى البريد الذى يبرهن عن ارادته، قبل ان يتطلق، لأن هناك خطراً من
افتراسه من قبل الحيوانات البرية المتوحشة او الناس، وهو يعد نفسه للانطلاق
مرة اخرى، بعد عودة الى البيت مباشرة. رأيت الدباغ بعينيه المجهدتين،

واصابه لها رائحة السمك العفن، يقضى حياته، يقطع الجلد. ورأيت الاسكافي الذي يستجدي طوال حياته، حتى انه يأكل الجلد الذي يعمل به كي لا يموت من الجوع.

هذا هو النغم المعبذب الذي كان ينبثق من مصر كلها، حين طلعت عليه الشمس في صباح اليوم الاول لوصولنا. لو اننى سافرت الى مصر في ايام القديس فرانسيس لكان بامكانى سماع الروح البشرية وهى تغنى غنائها الوثنى وتدعو المسيح كي يخلعها، ولو اننى سافرت في ايام غوته، لكان بامكانى التمتع بهذا الهارمونى الجديد الذى ينبثق من الكنائس العملاقة الباردة، وامتلئ بالبهجة وانا أستمع الى الصوت الهادئ للقساوسة وهم يباركون الفتى الاغريقى المولد، وهو يوغل في غموض الحياة والموت.

لكننى اسافر في الوقت الذى تستعبد فيه الروح الانسانية من قبل الآلة والجوع، وتناضل من اجل الخبز والحرية، فصرخة العمال اليوم التى بحت من الشراب، وتصاعدت كدخان الكراهية، هى صرخة الارض، وهذه الصرخة التى تقطع نياط القلب، قد رافقتنى طوال رحلتى من طرف مصر الى طرفها الآخر، وهى التى كانت تقودنى خلال هذه الرحلة.

لقد كانت الطبيعة مدجنة ومستعبدة، كطبيعة الفلاحين. فحقولها الموحلة مزروعة بالقطن، والبقول، والذرة، واشجار النخيل والاكاسيا، والصبار، والتين الشوكى، وسماؤها مشقلة، والوانها كثيفة، وهواؤها مشبع بالرطوبة. أما الغربان السوداء السمينه، فانها تطير وتحط فوق اتلام الارض المحروثة وطيور اللقلق النائمة، مثل الحروف الهيروغليفية تقف على ساق واحدة، على ضفة النهر.

اما الفلاح، فانه يبدو كقطعة من المنظر الطبيعى، مصنوع من نفس الطين، ويحنى قامته امام النهر، بجزره ومده منذ قديم الزمان، ويجبر الماء ليحمل الأخاديد، أنه يفعل ذلك كله باخلاص مطلق ومهانة مطلقة. وهو بذلك يحذو حذو اجداده بالتقاليد التى مرت عليها الاف السنوات. لم يتغير شئ.

نفس الجباه الضيقة، نفس العيون اللوزية السوداء، نفس الشفاة السفلية الغليظة المتدلية، نفس الجماجم التى شوتها الشمس، ونفس العبودية.

أما النسوة، فنسوة قذرات، مشنيات القامة، كحيلات العيون، يسرن صوب النهر، كى يملأن جرارهن الفخارية، ويضعنها على «المدورة» الموضوعة على طرف رؤسهن الصلبة المغطاة. تماماً كما كانت تقتضى الأسس القديمة. ويتسلقن حافة النهر بخط مستقيم، فى خطر واحد، وببطء، واحدة اثر الأخرى وتلمع الخلاخيل الفضية تحت أشعة الشمس، على كهوبهن التى لطخها الطين، ولفحتها الشمس.

هذه هى البقعة الخضراء الدلتا، التى قلبها تلك الياقوتة الحمراء، القاهرة التى تنفتح وتتمدد باتجاه البحر.

ومن القاهرة، صعوداً نحو الشمال، يبدو جذع مصر نهجاً منبسطة، مثل شجرة النخيل، يتمدد بين شريطين ضيقين أخضرين، بين قرعى النهر العميقين الزرقاوين، وعلى يمين وشمال ذلك الجذع، تنبسط رمال الصحراء الرمادية المترامية.

طيور حمراء تخفق بأجنحتها فوق المياه، أشجار الذرة تنمو بكشافة، وسهول منبسطة تأخذ بالتجمع. ومنذ آلاف السنين والنهر ينحت الصخور، ليشق له مجرى، كى يعبر هذه المسافة التى يبلغ طولها ستمائة وخمسين كيلوا متراً، من إفريقيا الوسطى، حتى البحر الأبيض المتوسط، حيث تعلو الجبال الصفراء، وتتدفق المياه الزرقاء بهدوء عبره، كى تثمر هذه الأرض الرملية القاحلة اللعينة، فالهواء لافح، والصحراء أرض رمضاء، والناس يحتفظون ببشرتهم الملوَّحة السمراء حيث تحول لون بشرتهم من اللون الحنطى الى لون الشيكولاتة الأسمر، وأخيراً، فإن كل الاجناس البشرية السوداء تظل علينا بذلك اللون المعدنى الداكن المشاكلى.

الطيور العديدة الألوان، وجماعات الديوك المزهوة، بأعرافها الطويلة، والسئونو الزرقاء، يصدورها التى لها لون القرفة.

الرجال نحيلون، والنسوة تتدلى الاقراط من انوفهن والاطفال يثمرغون فى الوحل ويأكلون قصب السكر.

وحين تغرب الشمس، تشوب الجبال عبر الطريق، حمرة خفيفة، وتعبر الجمال، باعناقها التى تتمايل ببطء، ويسحب الفلاحون دلاهم، ليرووا الارض وهم يغنون، حيث يبدو الكل مسالم وقانعا، ولا ينقصهم شىء سوى قلب رومانسى كى يخدع بهذه الدعة والسكنية.

لكن خلف قناع الوداعة هذه، كنت استطيع تمييز ذلك الوجه الحزين المكافح لمصر. فعلى طول ذلك الشريط الضيق الذى يزهر بالخضرة وسط تلك الصحراء البغيضة. هناك معركة مرعبة لاتنتهى بين الماء والانسان، فلو توقف هذا الصراع للحظة واحدة فقط، فان كل مايزين هذه الارض من اشجار وطيور وناس، سوف يغمر تحت رمال الصحراء، فمصر ليست بهذه السهولة التى وصفها بها «هيروودت» حين قال انها «هبة النيل» انها هذا الاجر الكبير والصعب الذى أصر اله مصر العظيم ان يمنحه ثلاثان، فالفلاحون، ومنذ الالف السنين يكدحون ليل نهار ويناضلون من اجل ترويض قوة الالة الوحشية المتهورة. فقد خلق طوفانه بنفسه بشكل متناغم واطل بطلعته المليحة، وخلق مصر.

ومن الاتهار الثلاثة القديمة العظيمة المقدسة، وهى النيل والفرات والقانغ، يبقى نهر النيل أكثرها قداسة. فالنيل هو الذى نقل التربة وخلق الارض، والنيل هو الذى غمر الارض فيما بعد بالماء وجعلها مشقلة بالشمار، هو الذى المحب النباتات والحيوانات والفلاحين، وهو فى النهاية الذى اجبر الناس على العمل معا من اجل تنظيم واكتشاف العلوم الاولى.

فى العصور القديمة كانت مصادر النيل ومنابعة مجهولة غامضة، وقد ادعى الكهنة انه ينحدر من السماء، وجعلوه اله الآلهة والجند المارد الجبار، الذى يستلقى على الرمال اما احفاده الذين لاتراهم العين لدقه حجمهم، فانهم يتجمعون كلهم من حوله.

لقد كانت منابعه سرية، مظلمة، مثل مصادر ومنايع الآله، ان وجهه يتغير
مثل نجم الدبران (الشور) وتتغير ألوانه من الأخضر الى الاحمر الارجوانى،
الى اللون الداكن، الى الازرق الغامق، وكما تقول الاسطورة المصرية القديمة،
فان ثلاثة من الرجال اقساموا ان يبحروا باتجاه الجنوب طوال حياتهم كى يعثروا
على منابعه السرية. بعد عشر سنوات مات الرجل الاول وبعد عشر سنوات
اخرى مات الرجل الثانى. دون ان يصلوا الى نهاية الماء. وحين اصبح عمر
الرجل الثالث مائه عام استلقى فى قاربه مثل الموميا، استعداداً للموت، لكن
صوتاً انبثق من الماء، وهمس له فى اذنه ليواسيه:

«مبارك انت ، لانك الوحيد من بين كل الرجال الذى رأى أغلب الماء. مبارك
انت لأنك الآن ستتحدر نحو الحادس - مشوى الاموات فى المشولوجيا
الاغريقية- وانتك ستعثر على منابعى التى كنت تناضل وتجاهد من اجل
الوصول اليها.»

اما اليوم فقد حل ذلك اللغز الغامض، فالنيل ينبع من البحيرات الافريقية
العظيمة، وهو يفيض فى شهر شباط - فبراير- بفضل الامطار الغزيرة،
ويحمل التربة من سهول الحبشة ، وينحدر فى مجريين، النيل الابيض والنيل
الازرق، ثم يعود ليجرى فى مجرى واحد عند الخرطوم. ومن هناك يتابع سيره
فى مجراه السرمدى، حيث يفيض، يوزع طميه على الرمال، ويخلق على
اليمن وعلى الشمال من ضفتيه رقعة صغيرة من الارض الخصبة.

وفى الصيف، تهب رياح الخماسين، تلك الرياح الغربية المروعة. التى
تصيب مصر بالجفاف والذبول، حيث تقتل الاشجار بالغبار، ويذبل العشب،
ولا يعود الناس او الحيوانات قادرين على التنفس، ويتقلص النهر ويتضاءل
وتشمل الحياة كلها فى مصر، ونرى الصحراء، وكأنها تقف على أهبة
الاستعداد، رغبة فى التوسع والامتداد وابتلاع مصر.

لكن الشلوج تبدأ بالذوبان فى الحبشة، ويرتفع منسوب المياه فى النيل،
وينحدر فى مجراه. وفى نيسان يحمل امواج الفيضان الى الخرطوم، ويبدأ

منسوب المياه في الارتفاع، حيث تغمر البهجة الحقول، والتربة والحيوانات،
والناس، وتستطيع العين تبين ذلك الارتفاع اليومي في منسوب المياه بشكل
واضح، وتبدأ البشرية بالسريان عبر المدن لتعلن عدد السنتيمترات التي
ارتفعها منسوب الماء. وتبدأ السدود الترابية بالتفتت وتعود الحشرات للحياة
من جديد، وتبدأ الاجتاس البشرية باطلاق ضحكاتها مثل طيور مالك الحزين،
وتتقاذز الاسماك وتلعب في الامواج الطينية. وتخلق اسراب الطيور فوق المياه
الغزيرة

فالنيل يتحول، ويتغير، أنه يستحيل الى اخضر ثم يصبح احمر اللون،
كلون الدم، واخيراً يصبح بلون الطمي ويغمر الارض. فيملأ القنوات، وتمتلئ
الخزانات بكنوزها المائية وتبدو مصر كلها مثل بحيرة، تطفو فوقها المدن
والاشجار.

وقد وجدت هذه الكلمات على إحدى الاهرامات قبل حوالي ثلاثة الاف سنة
من ميلاد المسيح:

« أولئك الذين يدينون بالفضل للنيل يرتعدون. لكن الحقول تضحك،
وضفاف النهر تزهر، وتنحدر قرابين الآلهة من السماء... ان قلب الآلهة يرقص
فرحاً...»

وحتى نهاية آب- اغسطس- يكون النيل قد بلغ اقصى مستوى له. وبعد
ذلك يبدأ منسوب المياه فيه بالتناقص شيئاً فشيئاً، فتنتهي البهجة، ويبدأ
زمن الأسى والحزن عند الفلاحين الذين يبدأ موسم كدحهم وشقائهم. حيث تبدأ
حراثة الارض، وبذرها وريها، وحصادها وفي النهاية، يظهر ذلك المظهر
المأساوي لهذا الكدح، الا وهو وصول «الافندي» نفس ذلك الوجه السرمدي،
لكن باسماء مختلفة: الفرعون، الكاهن، المالك الاقطاعي، التاجر، المرابي،
كلهم يأتون لجمع الشمار من تلك الاراضي المدروسة.

فالنيل لا يورث فقط. الارض والاشجار والحيوانات والناس، انه يورث
ايضا القوانين، والحقائق العلمية الاولى، فقيضانه ليس مصدر خير دائماً. لانه

يتحول في الوقت الذي لا يستطيع الانسان السيطرة عليه. لذلك يجد الناس انفسهم مجبرين على تنظيم انفسهم، والعمل معاً وبذلك يتحملون نصيبهم من هذا الفيضان، فيقدرون ارتفاع منسوبه، ويتحكمون بقوته المدمرة، ويختزنون طاقته المائية في خزاناتهم.

وهكذا ينتظم الناس في تجمعات ويكتشفون قوانين (العلوم المائية العلوم الهيدروليكي)ة وبعد ذلك سرعان ما يجبرون على اكتشاف العلوم الهندسية، ففي كل عام، تغمر مياه النيل الحقول، وتحطم الحواجز الرملية، ولذلك يصبح من الضروري لكل ملكية فردية ان تكتشف بوضوح فائدة تسجيل الارض في سجلات الاراضي وبشكل دقيق. وبهذه الطريقة يكون النيل سبباً في خلق «القانون». وهذا يعنى ظهور علم الفوارق والطبقات.

ولأن كل ضاحية تعتمد على الضاحية الاخرى، ولان ازدهارها ونموها يعتمد على التنظيم المحكم لتوزيع المياه، فان النيل يجبر الناس على قبول قسوة الحكم الكهنوتي (السلطوي) الذي يمثل اجتماع كل السلطات في رمز سياسي واحد، يستطيع ان يتحكم بالماء كله. وبوزعه بالعدل. لذلك يبدو انه كانت هناك حاجة ملحة، لوجود وخلق السلطة الفرعونية المطلقة.

في بقية دول العالم، نجد ان الامطار والفيضانات قد جعلت هذه الدول تهرب من السلطة الحكومية، اما في مصر فقد اقتصر تنظيم الماء على الحكومة. وحين جاء نابليون العظيم الى مصر، استطاع سبر اغوار هذا السر، الذي يجعل السلطة السياسية الصارمة، امراً لاغنى عنه في مصر. فقد كتب يقول: «لا يوجد في اية ارض أخرى، مثل هذا التأثير العظيم للادارة الحكومية على الحياة الاقتصادية كما هو موجود هنا، فاذا كانت الادارة جيدة، فان القنوات تحفر بشكل جيد، وتصان بشكل جيد، ويكون توزيع المياه عادلاً.. وتمتد خيرات الفيضان الى اوسع رقعة من الارض. اما اذا كانت الادارة ضعيفة او فقيرة، فان القنوات تغلق، والسدود تهدم وتخرّب، وتنتهك حرمان نظم خدمات توزيع المياه ويسرف الماء، وتعانى الارض من نقص المياه.

كنت اجهول على طول الشواطئ، بين اعواد قصب السكر، واتفرس بمهابة
وخوف هذا الماء الابكم. وهو يتحرك بكشافة وهدوء، لقد استطاع الانسان
التحكم بفيضانات النيل، من اجل زيادة الخصب، فقد ناضل باقصى
ما يستطيع من اجل تهذيب، وري، ومواجهة الصحراء وقد بدا لى للحظة ان
هذه الصحراء قد استسلمت وانفتحت، وحملت الثمار والمحبت اشجار النخيل
والحيوانات والفلاحين، لكن خلف هذه الاشجار، وخلف اكتاف هؤلاء الفلاحين
الذين يجرون المياه استطعت ان اتبين برعب العيون الاخرى البراقة، عيون
الصحراء التى لاتستسلم ابدا.

وانا لا استطيع ان انسى ذلك اليوم، حيث استطعت وانا اقف على قمة
جبل اليبوليس، ان المح فجأة خلال الاوراق الباردة الخضراء لاشجار الموز، بان
الصحراء قريبة جداً. رأيتها تتلأأ مثل زهرة، وتنتظر، لقد انقبض قلبى
لاننى عرفت، عاجلاً ام آجلاً، بان هذا النمر المرعب سوف يكسب فى النهاية.
قالنيل يمتد بلاجدوى ويخصب هذا الشريط الرملى الضيق الذى لاقيمة له.
اذا الى متى؟ الى متى يقوم هؤلاء الناس التعساء، نصف العراة بجر
المياه، وفتح الاثلام والقنوات، وزرع البذور وعزق الارض، الى متى يستمر
هذا النضال؟ طالما ان النيل سوف يتناقض فى لحظة ما، سوف يتناقض لتعود
بعد ذلك رمال هذه الصحراء الرمادية الناعمة التى لاتهزم ابداً.
ولهذا السبب، كان الكهان يقدمون القرابين للنيل، ويرفحون ايديهم
بالدعاء له والثناء عليه:

«مرحى ايها النيل المتجسد فى الارض

القادم بسلام

كى يحيى مصر

انك تخفى عبورك فى ثوب الظلام

وتقد امواجك الى الخدائق

وتعطى الحياة لكل شئ ظامئ

انت رب السمك
 واب القمح
 وخالق الجهد
 اذا توقفت اصابعك عن العمل
 فان آلاف المخلوقات سوف تهلك
 وتختفى الآلهة
 وتصاب الجموع بالجئون
 لكن حين تكشف لهم عن نفسك
 فان الارض تطلق صيحات البهجة
 وتحس كل بطن بالمتعة
 وتدغدغ الضحكات كل نفس
 حيث تجد كل سن مائلوكه وتمضغه!!
 وبعد اربعة الاف سنة، يقوم شاعر مصر العظيم هذه الايام
 احمد شوقي بالثناء على النيل بنفس الطريقة التعبيرية.
 «والماء تسكبه قيسبك عسجداً
 والارض تفرقها فيعيا المفرق
 لو ان مخلوقا يؤله لم تكن
 لسواك مرتبة الالوهة تخلق
 دانوا ببحر بالمكارم زاهر
 عذب المزارع مده لا يلحق
 متقيد بعهوده ووعوده
 يجرى على سنن الوفاء ويصدق
 يتقبل الوادي الحياة كريمة
 من راحتك عميمة تتدفق»

القاهرة

هذا هو الشرق كما نحبّه، طافح بالنور، والالوان، والعطور، وربما اجيال عديدة لا تحصى بزغت من طمس النهر، وجفت كما تجف قوالب الطين في الشمس، ثم تحولت ثانية الى طمس.

في شوارع القاهرة، كنت اتمتع برؤية المحصول الانساني المعاصر للنيل: الفلاحون النحيلون الرشيقيون، المرهقون من العمل والجوع، والاقباط الماكرون الذين يتغذون جيئاً، والبدو الطوال الصامتون المزنون بالأحزمة، في عيونهم نظرات النسر الحادة، ومثلون بالانفة والكبرياء، والزنوج بنظراتهم المفترة وشفاههم الغليظة، وعيونهم المكورة، ونسوة كحيلات العيون يرتدين الخلاخيل الفضية كالعبيد. وخلال الطواف في ارجاء هذه الظلمة الانسانية الملونة، التي تعبق منها رائحة المسك والروث، كنت ارى اولئك الأوربيين الشاحبين كالمرضى، تحت حرارة الشمس العربية، الذين لفحت الشمس وجوههم وجعلتهم كالمصابين بالدوار.

احدى الفلاحات كانت تعبر وهي تغطى طفليها الرضيعين بشالها الواسع الذي يتدلى من رأسها، كالسمكة.

وكان هناك ثلاثة من العرب يتمنطقون بـ «الياهو» (سيف تركي محذب) ويقرعون الطبول وهم يقودون جملاً هرملاً مترهلاً متوجاً بالازهار

خلفهم، وكانوا طوال الوقت يغنون بفرح وينشدون:

«غداً سيذبح هذا الجمل الهزيل

فى ملحمة احمد على

وهنثياً لمن يجد الوقت

ليشتري من لحمه»

اما «الفتوات» المتسكعون فقد كانوا يركضون وهم يحملون محارق البخور البرونزية الخفيفة، يحثون الخطى، وهم يدخلون او يخرجون من هذا الدكان او ذاك. وعند هذا الوقت كانت الشمس قد بلغت الظهيرة، وكانت الشوارع قد امتلأت بالجلاليل، وفاحت رائحة البهارات من اعماق السلال الصفراء، وامتلأت الشوارع المرصوفة بالقواكة، وروث الجمال والاعناب. ومرت موسيقى طويلة القامة، متهتكة، واخذت تسير بتمهل، ورائحة المسك تعبق منها، تاركة ملايتها تتماوج على ركبته، ومرسلة ضحكاتها المتواصلة.

وعند احد الميادين، كان هناك رجل عجوز يحشو بعض القطن فى قمه، ويتظاهر انه يمسح ذلك القطن ثم يبتلعه، وبعد برهة وجيزة انضم اليه رجل آخر، وجعل اصبعيه على شكل ملقط وأخذ يسحب القطن من فم الرجل العجوز، فى شريط لانهاية له، ثم تدخلت امرأة اخرى، يبدو انها العضو الثالث فى هذه المجموعة الاستعراضية، فالتقطت طرف الشريط القطنى، ولفته حول خصرها الدقيق، ثم اخذت تدور كالمغزل، وحين فرغ فم الرجل العجوز، دارت صينية جمع المال على المتفرجين، ثم انفض السامر.

ومنذ اقدم الازمنة، كانت هناك مشاهد خفية، فقد كانت النسوة يقمن بتقلية شعورهن تحت الشمس، وكانت الافاعي الملونة الساحرة فى كل مكان، وكانت النياتات المتسلقة تلتصق بجذوع الاشجار بحثاً عن الخلاص، وفجأة دلفت الى الشوارع مجموعة من النسوة المفجوعات اللواتى كن يلوحن بأذرعهن، ويشددن شعورهن، فى حين كانت احدى الجثث الملفوفة بالكفن الابيض تسير خلفهن، فى نعش عال، مغطى بالقماش الاخضر.

وفجأة هبت علينا الرائحة الحادة للقرفة والقرنفل والبخور، فقد كنا وصلنا الى سوق النسوة المسقوف، الذي تباع فيه كل انواع البهارات العربية، حيث يجلس شباب شاحبون يقبضون على ايدي الهاونات الحديدية الضخمة، ويدفعون بها الى اعماق الهاونات الحجرية، وكان هناك رجل عجوز يتربع على حصيرة من القش، ويقوم بخلط البهارات، والمراهم ومزجها معاً في هاونات رخامية صغيرة. وكانت البائعات الجوالات يقمن بحسر الحجاب عن وجوههن الى النصف ويقمن بالتدليل على بضائعهن باصوات خفيضة: كحل اسود للعيون، وحناء لصبغ الاظافر، وزيت الطيب من بغداد، وماء الزهر، وماء زهر البرتقال، والمسك، والبخور، وكل تلك البضائع التي تقود الى الغواية والخطيئة.

وهناك، بعيداً في اسفل الشارع، تبدأ ورش العمل الصغيرة، حيث تصنع التحف الفضية والنحاسية فهناك يقف الصناع المهرة، وهم مستغرقون جسداً وروحاً في عملهم، ومن خلال ادوات تقليدية قديمة يقومون بعمل التصميمات القديمة على المعدن، مثل: حوريات البحر والاسود، اشجار السرو، ومقتبسات من الآيات القرآنية.

وفي الجهة المقابلة من ذلك السوق ذي الاضاءة الخافتة نجد السجاجيد، الاقمشة الحريرية الاقمشة الفاخرة الملونة، السيوف التاريخية، والادوات المرصعة بالعاج والياقوت الاحمر واللؤلؤ، وقد ذكرني ذلك بكنوز الخليفة المستأنس بالله. كما وصفت لنا في إحدى الروايات التاريخية القديمة: تقول الرواية:

-«الصدر مشغول بالزمرد، الف ومائتا خاتم مرصعة بالحجارة الكريمة، الاف من الصفائح والوانى الذهبية المشغولة بالمينا الملونة، تسعة الاف برميل متعددة الاشكال من الخشب الثمين، مطلية بالذهب، مئة قدح محفور عليها اسم هارون الرشيد، سلسلة ذهبية تزن ثمانى عشرة اوقية، اربعمائة قفص، طاووس مرصع بالمينا، ديك من الحجارة الكريمة غزال من اللؤلؤ، طنائس

وسجاجيد لاتعد ولا تحصى، وعلى الف منها سجل بالسلالات التى حكمت العالم».

احد الفلاحين كان يبكى بصوت مسجوع، وهو يرفع يديه الى الاعلى استدرت، وفجأة، تحول هذا المشهد الملىء بالملذات والثراء الفاحش. كسراب فى الصحراء، تطاير يخفة فى الهواء وتلاشى. شعرت بالتحجل، ليست هناك خطيئة هذه الايام، اعظم من استسلام الانسان لاغواء الجمال المرعب، فحوريات الاساطير القديمة، تشل قوانا، وتغوى قلوبنا، وتلهينا عن القيام بالواجب المقدس تجاه عصرنا هذا.

تبادرت بسرعة، وتوجهت صوب جدران المدينة المهذمة، وتسكعت لساعات حول قبور الخلفاء المجيبة، والمساجد المقدسة الرائعة، والمنارات والمآذن، وهى تسمو باضوائها البهية، كأنها شهب بيضاء تخترق السماء الزرقاء الداكنة. وكانت المدينة تهدر فى الاسفل كهدير البحر، وبدأت الشمس تنحدر نحو المغرب، وبدأ الهواء يزداد برودة، الى ان اصبح بارداً جداً.

الآن، استطيع ان ارى الصحراء تلف كل البيوت، تلف المدينة وتحاصرها، اما زهرة القاهرة العظيمة، فانها تستلقى متفتحة على الرمال. تشرب من ماء النيل، وتزهر. اما الهواء فقد رؤض بالمويقات والموت.

وفى الليل، وانا اتجول خلال الشوارع الضيقة للمدينة القديمة تعثر بشكل غير متوقع، باحد الميادين التى تشير الشبهة والريبة، كان مليئاً بالفوانيس، والنساء، وغرف النوم الارضية القذرة.

كانت هناك نسوة عاريات الصدور يجلسن، او يتقفن، او يرقصن على عتبة كل باب، ينادين على الرجال، تومض اجسادهن باللون الازرق الغامق كالخمر الاثيوبية المعتقة، وبعضهن كقطع الشيكولاتة السمراء والبعض الآخر بيضاوات، بالبودرة، كالنساء الاوربيات وخلفهن يضى فانوس من نوانيس البترول الصغيرة، وسرير واسع يمتد من طرف الغرفة الى طرفها الآخر. وفى

زاوية الغرفة إبريق ماء ولاشيء سوى ذلك.

وفوق الابواب، تدلت معاطف ذات أكمام، تعود لهؤلاء النسوة. البنائسات، وساحلية صحراوية محنطة كبيرة الحجم أوجرذ محنط، او رسم لتمساح يبتلع امرأة، او جنينه بحر تضم سفينة الى صدرها، اضافة الى لافتات معدنية صغيرة، كتب عليها «للايجار» بكل اللغات.

وكانت هناك فتاة شابة تضع احمر الشفاه، وذات عينيْن لوزيتين رائعتين تضع مجمرة يشتعل فيها الفحم بين ركبتيها، تحمص الخبز وتأكله. وهناك في البعيد، اسفل الشارع، كانت تجلس امرأة عجوز بشعة تشوى سرطانات البحر الصفراء الصغيرة وتبيعها. وكان الهواء المحيط بها مشبعاً كله برائحة البحر.

وقد مرت بفتاة ايطالية سمينة وهي تحدث جارتها

- «وكيف صنعت كل ذلك»

- «لقد صنعت سروالين وثلاث جلابيات». هكذا جاء الرد المرح من الفتاة

الآخري .

تجمعت الدموع في عيني، فاخذت اوسع خطواتي، كي اعادر بسرعة واهرب. لكنني بقيت ضائعا في تلك الشوارع الملتوية. وبدأ الرذاذ يتساقط، وفي مقهى مليء بالرجال والاولاد، استطعت التعرف على القديس «انطوني اف بادوا» في اطار كبير على الحائط. وهو يحمل زنبقة بيضاء في يده. وفي مقهى آخر كانت هناك صورة د «فينيزييلبوس» وهي تتحدث مع «كونستنطين»، وفي اسفل الشارع «جورج» مع «اولفا».

وهذه المدينة مثلها مثل اية مدينة شرقية، تملأ الرأس بالضجيج، والخيرة، الوان. عطور، رجال، نساء، افكار، وقضايا اخلاقية ومشاكل اقتصادية. وكنت احس بان كل هذا الهيجان السريع الزوال يبيض في طمي النهر، وينضج تحت شمس افريقيا اللاسعة.

وكما يبدو لي من خلال احساسى الداخلى، كان هناك دائماً قانونان، فرضا القيادة الكهنوتية، على هذا الجانب الفوضى من الحياة الانسانية:

. المعيار الاول: المعيار الانساني النسبي: وقد شعرت بالفظاعة لان الحياة، وعبر الاف السنين في مصر، قد انتظمت حسب المعايير الذاتية لعدد قليل من القادة- الالهة، والكهان، والملوك، والمرابين- هؤلاء القادة الذين ساقوا الفلاحين الى الحقول كالحیوانات وقالوا لهم « احفروا وازرعوا واسقوا، ونحن سنذهب الخيرات ». وبالفعل، فخلال هذه الالاف من السنوات، بثت روح الخقد والانتقام بينهم وهم يقلبون اوجاعهم وينحتون تاريخهم في قلب الحجارة. ولم يحاولوا ابداً الاتحاد معاً، من اجل الهرب من هؤلاء الملوك المتعطشين للدم، والقوانين الجائرة، أو من الآلهة الفظة التي حفروها بانفسهم في الجرانيت، وشكلوها بايديهم. والآن، ما يزال الفلاحون يعانون من الجوع والاجهاد الشديد، تماماً كما كان حالهم خلال الاف السنين. وما تزال النسوة اللواتي يعانين من الجوع، يبعن انفسهن، وتتمزق قلوب الرجال النبلاء دون ان تكون قادرة على صنع الخلاص.

. المعيار الثاني، هو المعيار اللفظ المطلق: هذا المعيار الذي يجعل كل هذه الامواج البشرية ترتسم مباشرة في العين، بكل بطولتها وبأسها، وبلا اية محاولة للخداع بنظرية التعويض او الأمل.

لقد كانت مصر كلها، تمتد امام عيني وكأنها حاشية من المخطوط الملونة، معجزة قرى النمل الانسانية الملونة الواقعة على ضفاف النيل، ومعجزة، هذان الشريطان من السرحل اللذان يزهران بالخنضرة على يسار ويمين النهر، وينتجان الغذاء للآلهة، والناس، والحیوانات، كى تأكل. ومعجزة ايضاً هذه الصحراء القاحلة التي لا تحب، والتي تقتل الآلهة، والناس، والحیوانات.

انا لم اشعر بمثل هذا الاحساس، في اى مكان على هذه الارض، الاحساس بالعنف ولذة التواصل بين الحياة والموت. لقد اعتاد المصريون القدماء على وضع المومياءات في صدر قاعات الطعام من اجل النظر الى الموت، من اجل تقوية وعيهم بحياتهم القصيرة تقول احدى اغانيهم القديمة التي حفظت على ورق البرشمان (ورق نفيس شبيه بالرقوق)

«تمتع بكل يوم. ادهن جسديك بالعطور،
واجعل أنفك يتشمم الروائح العطرة،
واعقد باقة من اللوتس لحنجرتك، ولجسد
المحبوب الجالس بالقرب منك.
اسع لملاهيك الانية، واهرب من متاعبك
ومسؤولياتك، حتى تأزف الساعة التي سيأخذونك
فيها الى ذلك المكان الهادي، الذي تحب،
وتذكر: لا احد يمكنه الرجوع من هذا المكان، ابدأ»
اما انا الذي احب القول الفصل ب «نعم» و «لا»، فقد تمتعت بعمق، بهذين
الوجهين لمصر، الوجه الاخضر، والوجه الصحراوي الرمادي.

الْأَهْرَام

تذكرت لوحة مشهورة تصور الحرب، على شكل جبل هرمى طويل من الجماجم. ان قلبنا لا يتقبل بسهولة هذه الاعمال الوحشية التى ابدعها الالاف الذين عملوا وكدحوا ثم ماتوا تحت الرماد.

ومع ذلك كانت هناك حشود من الامريكيين الذين يرتدون النظارات، ويكشفون عن اسنانهم الذهبية يدورون حول الجماجم مثل الغربان، كانت النسوة يصعدن الى ظهور الجمال، وكانت جواربهن الحيرية تلمع فوق ركبهن، وكان هؤلاء السياح يقومون بجولة تقليدية حول الاهرامات، يندمرون قليلاً. ثم يتوقفون لالتقاط صورلهم وينطلقون عائدين الى شيكاغو.

وكانت مجموعة من الفلاحين قد تراهنت مع أحد الفلاحين، اذا استطاع ان يصعد وينزل الهرم الاكبر فى ست دقائق فانهم سيعطونه نصف جنية. واخذ الفلاح البائس النحيل الجائع، يتسلق الجدران الهائلة بيأس، ويقفز بغير هدى بين الصخور، ويختفى للحظات، ثم يعود ليظهر فى النهاية على قمة الهرم ثم يندفع بقوة نازلاً رأساً على عقب.

كنت اتابعه وانا اتمزق، اما الامريكيون فقد كانوا يعدون الدقائق على ساعات ايديهم، وعاد الرجل وهو يلهث، وسقط عند اقدامهم، ورفع عنقه، وهو يلهث. لكن الامريكيين كانوا كسبوا الرهان، وغادروا المكان وهم يقهقهون، فاخذ الفلاح يبكى.

قلت لعربى كان معى:

- «قل له ان يمسك بعض الحجارة ويكسر بها رؤوسهم».

لكن العربى ضحك وقال:

- «لماذا». السادة على حق، لانهم لم يدفعوا له، لقد خسر الرهان».

- «لكن لماذا يضحكون؟

- «الفائزون يضحكون دائماً، الاتعرف هذا؟»

فى هذا الجو القديم من العبودية بدا لى ان هذا الحوار القصير قد القى الضوء على كل تاريخ مصر، مثل الشروحات الهيروغليفية على الصقور

والارانب، والايدي الممزقة المحفورة على الاهرامات،
وسرت على طول الضفة الرملية، واشعة الشمس تكاد تشقب جمجمتى،
كانت الصحراء كلها فوق درجة الغليان، كانت الريح تعصف، وتدير بشكل
لولبى فوق الرمال. انه وقت الظهيرة، انه ساعة السحر والفتنة، الساعة التى
تظهر فيها ابنة تشويس «CHEOPSAA» من الهرم الاكبر، وتظل
تطوف فى خيال الفلاحين، وتنادى عليهم.

لقد استنفذ والدها كل ثروة مصر من اجل بناء الهرم الاكبر، وحين لم يتبق
لديه شىء، باع ابنته للغرباء ومن كل رجل، كان عليها ان تأخذ حجراً كهدية
لنفسها، ومن هذه الحجارة، استطاعت هى الاخرى ان تبني هرمًا صغيراً
لنفسها، ان هرمها سيظل الى الابد يبدو صغيراً جداً، وما يزال يتوسل
ويستجدى حجارة اخرى.

الفسق، الفجور، العبودية، القوة، كلها تنمو بشكل متسق مؤتلف، فى
هذه التربة الندية الدافئة، الخصبة، المحاطة بهذه الصحراء المرعبة.
الموت فى كل مكان، ولو انهم نظروا خلف هذه الاوراق الخضراء لرأوا
الصحراء. ولو انهم توقفوا عن العمل حسب هذه القوانين المجحفة، لو لدقيقة
واحدة، فان النهر سوف يغرقهم، ولو انهم رفعوا رؤوسهم فى وجه سادتهم
لهلكوا.

المصرى باستثناء لحظات نادرة فى تاريخه، لم يجعل الحرية غاية له ابداً.
ففى حياته السياسية كان عليه ان يطيع القادة، والفنون كان عليه ان يتبع
القواعد الثابتة والفكر كان يتبع تقاليد العصور السابقة. ولاآلاف السنوات
كانت غايته العظيمة الوحيدة هى هزيمة الموت وقهره.
واذا كتب له ان يستمر حتى فى مرحلة ما بعد الموت فانه سيعيش نفس نمط
الحياة الذى لايتغير. كان عليه ان يجد طريقة ما من اجل الحفاظ على جثته،
حتى تستطيع روحه ان تميزها وتعود اليها مرة اخرى.
اما قصوره وبيوته فقد كانت من الطين لانها خيام لمرحلة انتقالية، اما

قبوره فهي من الحجارة الصلبة، لأنها مساكن أبدية. إن الألفاً من العمال يقومون بتفريغ الجثة من أحشائها وملاؤها بالطيوب والاعشاب الطبية العطرية والقار، ويعلقون الطلاس فوقه، ويضعون «كتاب الموت» الى جانب جسده، حتى يكون بإمكانه معرفة الاجابة على: أى الطرق يختار، وأى التعاويذ يتلو.

فى تلك الاماكن الخفية تحت الارض، على المومياءات، وعلى الجعلات (الخنافس)، يصرخ الميت: «لم اقترف خطيئة، لم اقتل لم اسرق! لم اكذب لم اكن فى يوم ما سبباً لدموع فى عين أى انسان! اننى نقي! فانا لم اقتل حتى مجرد حيوان مقدس، ولم اطأ الحقول المحروثة! لم افتر على احد، ولم اغضب، ولم ارتكب المعاصي! ولم اتصرف بشكل غير لائق مع والدى او الملك! ولم اغش ابداً وانا ازن الاشياء! ولم آخذ الحليب من افواه الاطفال! ولم احرف الماء عن مجراه! اننى طاهر، طاهر، وعفيف!»

لكن على جدار القبر تكون الرسوم الوحشية التى لاتعرف الرحمة امامه، اثنان واربعون من الالهة يحيطون به ليحاكموه، آلهة العدالة تبحث قلبه من جثته، وتضعه فى كفة الميزان، فتأخذ الجثة المروعة بالنداء على قلبها: - «يا قلب احى، ايها القلب الذى صاحبنى منذ لحظة الولادة، لاتكن شاهداً قاسياً على افعالى، كن رؤوفاً بى امام آلهة الخادس» (آلهة مشوى الاموات فى الميثولوجيا الاغريقية).

فاذا لحجا، تبدأ الحياة الابدية تحت الارض، فتحاط الروح بالطعام، والاثاث، والحيوانات، فى الازمنة الاولى، كان الاسلاف يحضرون الطعام بالفعل الى القبر، وفى فترة متأخرة كانوا يقومون فقط باحراق الطعام، حيث كانت الروح تتغذى على رائحته، واخيراً اصبحوا يكتفون فقط برسم صور الطعام، والاثاث، والحيوانات. ذلك ان صوت الكهان يمتلك القوة السحرية التى تعطى الحياة لهذه الصور. حيث نرى الحياة تنبض فى الحيوانات، واللحم، والخبز، والفواكة حيث تنزل هذه الاشياء عن الجدران، وتنتشر على الطاولة، فتقوم

الروح الجائعة بالتمتع بأكل الطعام. وبعد ذلك تنزل صور العربات التي تجرها الخيول، فتعد نفسها، وتأخذ تلك الروح السعيدة التي تغذت جيداً، في جولة، كي ترى حقولها، وأطفالها، وتسير تحت الشمس المحجوبة على طول النهر.

يقول «كتاب الموت».

«تذهب كل صباح، وتعود ثانية إلى القبر مع الليل، وهناك شموع ضخمة تشير لك الليل لتضمن راحتك إلى أن تشرق الشمس على جسدك مرة أخرى، وهي تهتف لك، اهلاً، اهلاً بك في بيتك!!»

هذا الظلم إلى الأبدية يحكم مصر، وهو ينظم حياتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وهو الذي يسيطر على الآداب والفنون، وهو الذي يريح العبيد ويمنحهم الصبر، والكهان والملوك يستفيدون ويستخدمونه كأداة للشراء والقوة والجاء.

لقد استمعت إلى صرخة الأبدية هذه وهي تدوي. فبدت لي هذه الأهرامات الصلدة فجأة، مثل خيام حجرية تخيم في صحراء الموت، وتحرس الروح حتى لا تموت، وفي لحظة توهج مأساوية مفاجئة، بدت لي مثل فارس دونكشوتى طويل، يقاتل بلا أمل من أجل التقاط نفس الأبدية الضئيلة على هذه الأرض. وهناك اغنية رائعة عن الموت، حفظت لنا، لأنها نحتت بالحروف الهيروغليفية، تقول:

«ما هو الموت!

كل يوم أقول لنفسى: الموت يشبه انساناً ما انطلق من قبر المرض.

كل يوم أقول لنفسى، يشبه استنشاق الشللى والعبير، ويشبه وجودك في أرض السكر

كل يوم أقول لنفسى: الموت يشبه تلك اللحظة التي تكون فيها السماوات صافية لفترة، حيث يأخذ الانسان شهوته

لصيد الطيور، ثم يجد نفسه فجأة في مكان لا يعرفه
ما هو الموت؟

انه ذلك القلب الطاهر المستقيم الذي آن اوانه»

انه ذلك القلب الطاهر المستقيم الذي آن اوانه

هكذا بدا لي «ابو الهول» حين وجدت نفسي امامه وجهاً لوجه هذا اليوم،
وللمرة الاولى. على بعد قليل من الاهرامات.

لقد نحت في الصخر الاصفر، بحجمه الضخم الرهيب العجيب، يشمخ
برأسه بعنف فوق الرمل. نحو الشرق، كما لو انه يناضل من اجل ان يكون اول
من يدرك كنه الشمس لقد مات بالامس، وانحدر الى الظل، وهو اليوم يأمل ان
يعود للحياة مرة اخرى كي ينهض بكل عظمته وقوته من الصحراء الليبية،
وقلوب النباتات والبشر الدافئة.

انه أقدم تمثال في مصر منذ اكثر من اربعة الاف سنة من ميلاد المسيح.
انه يسمو فوق الرمال، منتظراً اشراق الشمس كل صباح بالتم شديد، انه باللون
الاحمر، شفتاه كبيرتان حسيتان شهوانيتان، كشفتى الفلاح. وهناك مناخ من
القدريّة والرعب في هذا الفضاء الواسع المحيط به، وهو تبدو عليه سيما،
الهدوء والرزانة.

عيناه مفتوحتان على وسعهما، تحدقان بالمجذاب صوفى، وتنظران برعب
الى هذه الصحراء.

حين دفن في الرمل الى رقبته، كان رأسه يوحى بالرعب، كنذير على قدر
الانسان الذي سيقع. ولسوء الحظ فقد نظفوه الآن من الرمل، وحرروا جسده
الذى يشبه جسد الاسد، واقدامه الطويلة الممدودة، المعبد الذى بين اطرافه.
وبدا لي ان هناك صيحة لمجده واستغاثة سوف تنطلق من صدره «النجدة،
النجدة يا ابنائى، انقذونى من هذه الرمال!!»

هكذا كان يتادى على الناس منذ الاف السنين وكان الناس دائماً يحررونه
ويطلقونه، لكن الرمال كانت تعود مرة اخرى وتغطيه. لقد ظلت الصحراء

تُحاصر، وهي ستهزمه، ليس هناك أي خلاص، وهو يدرك ذلك، ولهذا السبب نرى الرعب في عيشيه والصرخات تنطلق منه.

انني اذكر أبياتا شعرية لشاعر مصري معاصر املاها على «أبي الهول»:

- «يا من غرقت ذاكرة البشر بغربالك

تحدث، وحوىء دواخلنا بتعاليم التاريخ

الست انت الذي رأى مجد الاسكندر

وخزى قيصر؟

اما الآن فلا ترى عيناك سوى قرية متواضعة»

اما بالنسبة للانسان الذي اخترق هذا الاسئلة المتمايزية التاريخية اللفظة

والقاسية، فان «أبي الهول» ليس الا ابكم، اطرش واعمى.

ان السؤال الذي لم يُسأل ابداً، ولم يوجد ابداً (أهذه هي حضارة الانسان،

وغروره الاجوف؟) والاجابة ايضاً على هذا السؤال، لم توجد بعد!!

مصر العليا

دخلنا الى مصر العليا بالقطار، وكانت الجبال تتراءى امامنا عارية، وردية اللون، مقفرة، بالقرب من المكان، على الشريط الاخضر الضيق، للأرض المأهولة على طول النهر، كان الزوج يصرخون وهم يلوكون الذرة بينهم، ويرفضون الماء من النهر بالروافع. وحين كنا نعبث المكان، قامت فتاة صغيرة برفع ملايتها، ولفتها حول خصرها بحركة راقصة.

كانت بيوت الفلاحين متناثرة على طول الطريق، وكانت سطوحها المستوية مغطاة بطبقات من الذرة الصفراء التي تركت لتجف تحت الشمس. وكانت الشالات السوداء والحمراء تتدلى من ابواب هذه البيوت التي لاشبابيك لها، والمصنوعة من الطين والقش، والتي ينام فيها الناس والبهائم جنباً الى جنب في احد المخازن الصغيرة كان هناك طفل رضيع ميت. ترك مرمياً في ذلك المكان القذر، فوالداه مايزالان يعملان في احد الحقول، الرجل يحرث الارض، والمرأة تتبعه لتلقى البذار خلفه. فيوم العمل لم ينته بعد، وهما ينتظران حلول الظلام كي يتمكنوا من دفن ابنيهما. كان جسد الطفلة الرضيعة النحيل الاسود، بذراعيه الممدودتين، ورأسه المنتفخ المتضخم الملقى في الخندق الصغير يبدو لي وكأنه يحفر الارض. لان به رغبة عارمة للعودة اليها.

هنا مايزال الغطاء الاخضر محافظاً على ضيقه ومحدوديته. فعلى بعد خطوات قليلة للامام يمكننا تبين حدوده. من مكان لأخر يمكن مشاهدة شجرة نخيل أو شجرة اكاسيا شوكية مزهرة، أو بعض اشجار الصبار ذات الاوراق الشوكية المسطحة الضخمة، وهي آخر الاشجار البتلة اليائسة التي بقيت من هذه الحياة الخضراء. ان قلب الانسان يرتعش فخراً واحباطاً، فكل شئ هنا يأخذ رمز القسيم الانسانية الجبارة، لانه لا يوجد اى مكان في العالم، كهذا المكان في مصر، التي تستطيع فيه ان ترى الحياة امامك بوضوح، حياة كأنها جزيرة صغيرة مشيدة في محيط الموت اللامحدود. جزيرة مصنوعة من الماء والتراب واللحم البشري، والدموع، حيث تعنى بدقة، وأنت تنظر الى الحدود، هنا في مصر، لاجدوى شجاعة الانسان وكدحه وألمه.

وصلنا الى طيبة «الديوسبوليس» العظيم، الاعمدة المثة لـ «هوميروس» في
عاصمة الفراعنة الضخمة العظيمة. وهي الآن مدينة صغيرة تعيش على الاف
السواح الذين ينتقلون اليها بالقوارب او القطارات.

وكان السياح يمتطون الجمال، والحميز، ويتعلقون بايدي الاولاد السياحيين
ويطلقون بعض الصيحات غير المفهومة، «اووه»، «آه»، وينطلقون يذهبون
الى المعابد، وينزلون الى المقابر، وينظرون دون ان يروا شيئاً، وهم يلبسون
نظاراتهم الزرقاء المعتمة.

لقد قمت بزيارتي لمعبدى «الاقصر» و«الكرنك» فى وقت مبكر من الصباح،
قبل ان يستيقظ السواح. ودرث حولهما مثل الحشرة الصغيرة التى تفقد
احساسها تحت هذه المعابد الضخمة، كل هذه الاشياء الضخمة تبدو غير
مفهومة لى، وبغيضة الى نفسى.

هناك بحر، طوله كيلومترا، يصل بين معبد الاقصر ومعبد آمون «الكرنك»
عرضه ثلاثة امتار، مبلط بالحجارة اللوحية، ويحيط به من اليمين ومن
الشمال الف مخلوق من مخلوقات «السفينيكس» الخرافية ذات الرؤوس
الحيوانية. اما المذبح- مكان تقديم القرابين- فى معبد «الكرنك»، وهو المكان
الذى لا يسمح الا للملك بدخوله، فيبلغ طوله مئة وثلاثة امتار وعرضه اثنان
وخمسون متراً، اما ارتفاعه يبلغ خمسة وعشرين متراً. وهو مزود بمئة واربعة
وثلاثين عموداً، اما بقية المعبد فهو مزين بالتماثيل الغامض يبلغ ارتفاعها
حوالى عشرين متراً.

اما النقوش البارزة العظيمة، فهى تصور الفرعون وهو يشد قوسه، والاسرى
المقيدين بالسلاسل من رقابهم، وهم يرفعون اذرعهم، والالهة وهم فى مشهد
النزول على الملكات ليصنعوا معهن الورثة. وفوقهم تحكى الحروف
الهيرغليفية سر هذا الاتحاد الغامض، حيث تقول المرأة:

«لقد اتحدت روحك مع روحى، واخترق بهاؤك جوارحى، واصبحت قطرات نداك
المقدس ولداً ملكياً فى جسدى»

ويجيب الإله:

«كم كنت ممتعة لى».

لقد فكرت ملياً بتلك السلالات العظيمة ، حين سمع للاجانب بزيارة مصر والتجول فيها على هواهم، ياله من منظر مدهش، هذا المنظر الذى يمتد امام عيون الاغريق البسيطة الوادعة هؤلاء الاغريق، الذين ولدوا فى مدن صغيرة، او عملوا باستمتاع، وجعلوا ارواحهم تتآلف مع ذلك الحيز المادى الضيق المحدود. فجأة جاءوا ليجدوا انفسهم وجها لوجه مع هذه الآلهة الهائلة العظيمة والاعمدة العملاقة وجحافل العبيد البشرية التى تعمل دون ان تفكر بالتمرد او الثورة. وتضع هذه الحجارة الضخمة حجراً فوق حجر، فى محاولة جاهدة منها للامساك بالروح.

لقد كانت مصر زهرة عباد شمس مظلمة، اتجهت نحو شمس الدياميس الارضية، نحو إلهة الموت «اوزيريس»، ان تمائيلها، رسوماتها، خطوطها الهيروغليفية، معابدها لا تقدم اية رؤى جمالية بل هى اشياء فرضتها الضرورة القصوى.

لقد كانت هذه التماثيل هى مركز القوة السحرية المشدودة الى روح الله، او الانسان الذى صوروه وارغموه على الاستقرار فى ذلك المكان. وهذا هو السبب الذى جعل هذه التماثيل التى تملأ المعابد، لم تأخذ ذلك الطابع الرومانسى المثالى، وانما كانت شديدة الواقعية، بحيث انها تحاول رسم كل تفاصيل الميت. وذلك من اجل ان تكون الروح قادرة على تمييز جسده، للحلول فيه مرة أخرى والنجاة مرة أخرى. ومن هنا كانت الزخارف المزيفة تعتبر اثماً وخطيئة. لقد قدس الكهان الماء، وغسلوا التمثال، ومسحوه بالزيت، ونحتوا اشياء غريبة عليه، وجعلوا عينيه تبصران، وفمه يأكل، وأذينه تسمعان.

لقد ركبت متن السفينة ونشرت الشراع، وعبرت مع اثنين من الزنوج الى ضفة النيل الاخرى، كى اشارك فى احتفالات «النيكروبوليس» مدينة الموتى، فى وادى الملوك.

جبل رمادى قاحل وموحش، ووهاد عميقة شديدة الانحدار ملتوية، تعبر شعابها، وقد تركت نفسى تغوص فيه لعدة ساعات. اخذت ادور والف وانا لاستطيع فهم ما أرى مثل تدويم عقل اله الموت. كنت اتذوق طعم الرماد يتسلل الى اعماق حنجرتى، لا توجد اية نقطة من الماء فى أى مكان، ولا توجد حتى اية ورقة خضراء، لم يكن هناك سوى طائر رمادى وحيد عبر المنطقة للحظة، اعتقد انه صقر حوم حول المكان بهدوء مرتين او ثلاث مرات ثم تلاشى.

لقد كرست هذه الضفة الغربية بكاملها للموت، لقد حفروا اعماق الصخور من اجل دفن مومياؤاتهم، فقط مثلما نقوم نحن بدفن بذور الحنطة كى تنمو وتعود للحياة ثانية، والآن ونحن نحفر، نجدهم ملفوفين باكفانهم وأيديهم متقاطعة منذ آلاف السنين وينتظرون، الملوك والعبيد، القديسون والقتلة، الكهنة والراقصات، كلهم ينتظرون ارواحهم.

لقد دخلت الى قبر امنحوتب الثانى، الذى مات عام ١٤٢٠ قبل الميلاد، كانت الحرارة خانقة، والاضواء متواصلة واستطعت ان اتبين الصور على الجدران، وآلهة على شكل صقور، قارب الموت، قرابين الجنائزات، وآلهة الخلود، التى نراها على كل الاعمدة تكشف عن صدرها وترضع الملك، وهناك نباتات وحيوانات متعددة الالوان، وعلى الحائط الاصفر تبدو السطور الهيروغليفية لـ «كتاب الحادس» اما السقف فهو عبارة عن سماء لازوردية بنجوم صفراء، وفى الاسفل، فى غرفة عميقة سرية، تستلقى مومياؤ الملك بسلام، وهى تزال مزينة بزهور الجنائز.

حاولت التحقق فى المكان، وتسكعت حول مقابر الملوك الى ان هبط الليل. لم اكن افكر فى الموت، بل فى الواقع، كنت امتع نفسى بالحياة التى تتفجر امامى من جدران المقابر. انها تنقض كما لو انها قد احسست للتلو بالضوء مرة أخرى، وبالعينين الناريين اللتين تشاهدانها، وتعيدان الحياة اليها من جديد. فى كل مكان حول الجسد الميت، رأيت الحياة تكشف عن نفسها. الرجال

يحرثون، يرعون الماشية، يصطادون الحيوانات، يصطادون السمك، ويسافرون على طول النيل والنسوة يطحن الطحين ويعجن العجين، ويوقدن النار، واخريات يقمن بتزيين أنفسهن، يرقصن، يعزفن على العود، ويشمن الزهور. اما الملوك النحيلون الشاحبون فهم يحملون مفاتيح الحياة على صدورهم، وسيدات القصر يجلسن فى الصالة وعبيدهن المرأة الطوال مثل الزنايق، ينحنون فوقهن ويقدمون لهن الازهار والفواكه المحمولة على اذرعهم الممدودة. وفتاه راقصة، بشعر اسود فاحم غزير، تحنى ظهرها كلياً للخلف ويديها تلمس الارض، تثنى جسدها على شكل قوس. ولهذه الراقصة غنى الشاعر القديم هذه الكلمات الملتهبة التى ما تزال محفوظة لنا على اوراق البردى الصفراء.

«ايها الجسد الذى يحمل الفرح، ما اعذب شذى عطر حجرتك. فمك خمرة مسكرة، الذ واشهى من فواكه كرومنا، واكثر عبيراً من زهور حدائقنا وقت ازهارها. من الافضل ان يكون المرء معك، الى جانبك، على ان يأكل حين يكون جائعاً، او يرتاح حين يكون تعباً».

وغالباً ما يكون على جدران هذا المذايق الارضية توهج الحكمة، وعذاب الكلمات. احدى الصور ترينا احد «المراكبية» وهو يسافر على طول النيل، ورجل عجوز على الشاطئ، وتحت الصورتين كتب هذا الحوار الموجز:

- «تقدم ايها الرجل العجوز، سر على الماء»

- «اخرس»

وفى مكان آخر امرأة تعجن، وتحت الصورة كتبت هذه الكلمات:

- «اعجنى جيداً، بقوة!!»

وهناك عبيد يغسلون الاباريق، ويملؤنها بالخمير ويختمونها بالشمع وتحت الصورة كتب بحروف هيروغليفية:

«نظفوها جيداً، إملأوها بالخمير البارد، واختموها»

وفى مكان آخر، امرأة عارية ترقص، وآخرون يجلسون متربصين يعزفون على

آلة الفلوت، وكتب تحت الصورة:

«الحياة جميلة، الرقص جميل، والفناء جميل»

وفى صورة اخرى، نرى الملك خارجاً فى رحلة مع بناته السبع، فى العربة الاولى هناك ثلاثة: الملك زوجته، وابنته الصغرى، وفى العربتين الاخرين تجلس بنتان من بنات الملك، الكبرى تمسك بالزمام والصغرى تنحنى وتتعلق باختها، وخلفهم العديد من العربات التى تحمل الندماء، العبيد، القروء، الطراويس. وعلى ظهور الخيول يبدو الشراء الكبير، الوان حارة، طيلسان ابيض، ودواب من ريش النعام.

باى سحر، باية جديده، وباية قوة تتزوج كل هذه الظلال فى الظلمة كما لو انها تعيش وتسود فى مكان بعيد جداً وانا اراها لكننى لا استطيع سماعها على الاحافير المرسومة، تنهض هذه النسوة القديسات والزهور على رؤوسهن، ويزهرن فى اخاديد عطفى. اما اعباء الحياة اليومية، وكل الموتى، وعذاب العمال، فانه يمج بالحياة داخلى، وتمزقنى هذه الفظائع الرهيبة.

وبدأت افكر، اذا اندفعت عنوة عبر باب ذاكرتى، فسوف اتذكر اننى انا الذى غنى الاغنية للفتاة الراقصة، واننى انا الذى انحنى وجر الحجارة وصرخ وهو يتلوى من الجوع، واننى انا الذى يبلغ من العمر مئة عام، الذى تسلق وتسلق بقلبه الضعيف، ثم سيج عكس تيار النهر.

اثناء نزولى الى «الخادس» عشرت على المنابع الخفية الغامضة للنهر، الماء الابدى، حين مددت يدي الى القبر، شريت فتجددت مفاصلى، ثم صعدت ثانياً الى الارض، وانا اطوح بذراعى فى الهواء، مثل المجاديف، اطوح بهما مرة اخرى عكس التيار.

كانت الدنيا قد اظلمت حين خرجت من ذلك القبر الشهير لـ «توت عنخ امون» فى الصخور البادية امامى تفغر المدافن الملكية افواهها الضاربة الى الزرقة، والجبل الرمادى يتحول للحظة من اللحظات الى اللون القرمزى.

كنت متعباً لقد اعطيت الكثير من دم قلبى من اجل ان اعيد هذه الظلال الميتة

الى الحياة، وان اتمتع قليلاً. وبذلت جهدي لتحقيق مالا أمل فيه ولم يبق سوى ظلين، من هذه الظلال لم يكونا يريدان مغادرتي، لقد عرفا أنني قد أحببتهما حباً جما. ولا يوجد أي شيء في العالم أكثر حاجة للحب، من الميت.

وهذان الظلان اللذان تبعاني على طول الطريق من وادي الموت الى النيل هما الملك «امنحوتب الرابع» -أخناتون- وزوجته نفرتيتي، لدرجة أنني لم اشعر بالحسرة تجاه الناس الأحياء، كما شعرت به تجاه هذين الزوجيين الملكيين الغامضين اللذين عاشا قبل ١٣٧٠ عاماً قبل ميلاد المسيح. كان جسد «امنحوتب» قد لوحته الشمس، لقد كان مستسقى الرأس، بفك ناتئ وجبهة عريضة، وأنف خطاً في طویل وشفتين حسيتين ممتلئتين، وجبهة نحيلة عليّة، واكتاف واهنة، والصدر صدر اسد، والقدمان قدما امرأة.

لكن في هذا الجسد - الذكري الانثوي - المشوه، تسكن روح مولهية لاتعرف الخوف، لقد هيا نفسه لغرض، انه يريد الاطاحة بـ «أمون» الاله القادر على كل شيء في مصر، ويخلعه عن عرشه. ويضع مكانه الاله «آتون اله الشمس». كان ما يزال فتى في الخامسة عشرة من العمر حين ورث العرش. وقد قام مباشرة ببناء مصلى من الجرانيت الاحمر في وسط اقدس معبد له «أمون» في «الكرنك» وكرسه لاله الشمس.

في البداية صور اله الشمس على شكل جسد رجل ورأس صقر. وفوق رأسه قرص نارى متوهج لكن عبادة الولد الصغير أصبحت غير متجسدة. بلا جسد انساني وبلا رأس صقر. ولم يبق سوى ذلك القرص القرمزي المتوهج، حيث تنتشر الاشعة كالمروحة، وتتدلى فوق الارض، وتنتهي على شكل اذرع وتعانق جسد الملك وزوجته نفرتيتي.

وهذا الرمز - شمس باذرع طويلة تعانق العالم - قد اتخذ رمزاً للديانة الجديدة. - «أيتها الشمس، ايها الاله الوحيد الذي له اذرع لا تحصى ولا تعد ويمد اذرع له لاولئك الذين يحبونك»

وهناك ترنيمة اخرى تمجده:

«مرحى يا اجمل آلهة النهارا شعاعك يأتى- ونحن لانعرف كيف- من فوق رؤوسنا. ان لمعان الذهب لا يصل الى درجة لمعان شعاعك، وانت تدورين فى السماء، يشاهدك ويراقبك كل انسان، وحين تذهبين الى تلك الضاحية الخفية المظلمة يصلى لك كل انسان».

لقد اعلن «امنحوتب» حرباً لاهوادة فيها ضد دين «آمون» القديم وكهنته لقد ازال كل تماثيل الآلهة القديمة من كل المعابد، ومحى اسمه من كل اللغة الهيروغليفية. واخذ المتعبدون الجدد يتسلقون قمم المسلات الحجرية، ويهبطون الى اقبية القبور المظلمة، كى يعثروا على اسم لصورة «آمون» كى يحطموه. وبهذه الطريقة فقط، أى بتحطيم الجسد المرئى، كانوا يعتقدون انهم يستطيعون طمس روح الاله.

«توت عنخ امون»، الملك الذى جاء بعده، والذى تزوج احدى بنات «امنحوتب» واعاد الديانة القديمة من جديد، يروى ذلك ويقول:

«لقد اصبحت المعابد حقولاً، وكذلك الطرق الى المذابح التى يعبرها الناس الآن، واشاحت الالهة بوجوهها عن الارض، وحين يناشد الاله ويتوسل اليه فانه سيعود وحين تناشد الالهة ويتوسل اليها، فانه سيعود ايضاً. ان روح الآلهة قد حلت فى جسده»

اما «امنحوتب» فقد تنازل عن اسمه لـ «اتون» بطريقة مختلفة، فقد أطلق على نفسه اسم «اخناتون» أى «مجد الشمس». وهجر مدينة «طيبة» مدينة «آمون» وبنى مدينة جديدة قرب التل الذى يعرف اليوم بـ «تل العمارنة» بين «طيبة» و«مفيس» وسماها «اخيناتون»، أى افق الشمس ولقد بنى المعابد والقصور، واقام الاحتفالات العظيمة ووزع الارض. وانشأ الوظائف العليا للمؤمنين، واعلن نفسه «النبي العظيم للشمس»، وممثل الله على الارض. هذه الثورة لم تكن ثورة دينية فقط، بل كانت ابعد من ذلك، لقد كان لها

دوافع اقتصادية وأهداف سياسية، لقد تحكم «اخناتون» فى كل ممتلكات «أمون» الضخمة، وقيد سلطة رجال الدين وحد منها وأخضعها للسلطة الملكية. وأنشأ وظيفة عليا للفرعون العظيم والاله المقدس. وفى نفس الوقت ارتقى الى مرتبة الاله العظيم، اله بمرتبة الشمس، وليس بمرتبة ذلك المصرى النقى «أمون». وكانت الشمس تعبد من قبل جماعات مختلفة من أسيوين وإفارقة وقد كان متاحاً أمام الجميع، ممن يشتعون الى نفس الجنس البشرى او الى الاجناس البشرية الاخرى، ان تتعلم وتتشف، وهكذا يصبح من السهل على الجميع ان يعترفوا بفضل مصر، وان يتقبلوا سيادتها، لقد فصل أمون المصريين عن غيرهم من الاعم الاخرى، اما اله «الشمس» فقد جاء كى يوحد بينهم

هذا الاصلاح الدينى والسياسى، اعطى نفساً جديداً للحياة الادبية والفنية خلال حكم «اخناتون» لقد تفجرت الثورة فى كل المجالات التى ولدت العقائد والقوانين، والتقاليد. فى كل الاعمال التى ماتزال حية حتى الآن، نشعر بعواطف واضطرابات متأججة، وحب عنيف للحياة، واخلاص واضح، ومشاعر حارة.

وفى العمارة، كانت المداخل مفتوحة وطيقة، وكذلك الأمر بالنسبة للقاءات المظلمة والمذابح، التى كانت محجوبة عن اعين الناس الراقدين.

اما الفرعون عابد الشمس «أبو سنيت» او الصابىء فقد بنى معابد واسعة مفتوحة تدخل الشمس الى كل مكان فيها، وتنشر اشعتها عليها، وبنى ساحة ذات اعمدة، وفى مركز الساحة بنى مذبحاً مفتوحاً، ورمزاً مقدساً عبارة عن شمس «ارجوانية- قرمزية» تدور فى فلكها، وتشرع اذرعها التى لاتعد ولا تحصى. ولم تعد احتفالات الموت المظلمة تقام فى أى مكان، وعلى ارضية الساحة، وعلى الجدران، وفى كل مكان، هناك طيور متعددة الالوان، انهار واسماك وحيوانات متقافزة وأوراق اشجار تتراقص فى الريح.

لقد زالت تمائيل الله، فالاله الجديد لا جسد له، ولم يعد النحاتون ينحشون

الالهة، وانما تماثيل الانسان، وبشكل خاص الشكل الاسمي للانسان، الفرعون،
ففى كل مكان وفى كل الاعمال التى بقيت لنا من عصر النهضة المصرية
القصير هذا، لا ترى سوى هذا الوجه الطويل، الحسى، الصوفى لـ «اخناتون»
ونرى معه بشكل دائم زوجته الحبيبة «نفرتيتى» وهى امرأة طويلة، فاتنة،
تنبض بالحسوية والرغبة، يذقنها الصليب الموشوم، وشفتيها الاسيريتين
الشهوانيتين. وكثيرا ما كانت تصور عارية تماما وهى تقدم زهرة لزوجها.
وهناك تماثيل صغير لها وهى عارية مصنوع من الجراتيت الرمادى، وهذا التمثال
يصورها وهى تسير برزانة، بخطوات واسعة وقبضتين مطبقتين باحكام،
وعنق مشدود انيق، وعينين محدقتين تنظران الى الامام، تنظران بعزم
وتصميم وقنوط وكأنها تتأمل بالصحراء.

لقد كشفت الحفريات الاثرية فى «تل العمارنة» عن مناظر واقعية منقوشة
على الحجارة، لم يعرف مثلها من قبل، فلأول مرة فى الفن المصرى، نرى صورا
للحياة العائلية لم تكن معروفة حتى الآن. تصور الفرعون بكل ألفة ومودة
فى حالة الفرح، وفى حالة الغضب الشديد. حيث تراه فى بعض الاحيان
محفوقا باذرع الشمس، وترى جسده ينبض بالفرح والبهجة، وفى احيان اخرى
تراه يجلس على عرشه ويحتضن زوجته وكأنه يقبلها، ثم تراه مرة اخرى
يجلس هو وزوجته معاً تحت اشعة الشمس، بينما تجلس بناته على حضنه
ويلعبن.

لقد كان الحب للطبيعة قوياً جداً، وكذلك الحب للالوان، وفى كل مشهد من
مشاهد الحياة فى هذه الاعمال، تسترجع بشكل زاه، ونابض الصور
«الكريتية» التى تعود لنفس الفترة. وحين تأخذ بعين الاعتبار ان قصر
«كنوسوس» الثانى «KNOSSOS» قد دحر فى عام ١٤٠٠ قبل الميلاد
وان الفنانين المهرة الذين صنعوه قد تشتتوا فى الاراضى الغربية فأنك بلاشك
سوف تشعر ان نفس الحياة الكريتية قد نفخ فى عصر النهضة القصير للفن
الكهنوتى المصرى الراسخ.

وفجأة، وبينما كانت هذه الشورة الخلاقة فى قصة عطائها وتألقها، مات «اخناتون» الشاب، ونحن لاتعرف شيئاً عن وفاته، سوى هذه المعلومة البسيطة: لقد امرهم انه مهما كان المكان الذى سيموت فيه، يجب ان يدفن فى عاصمته الجديدة الحبيبة الى قلبه، لكن قبل سنوات قليلة وجدت مومياؤه- فى النكروبوليس» مدينة الموتى فى طيبة، الى جوار مومياة امه «تى» والى جانبها ايضا وجدت ايضا بعض النقوش الجنائزية من التابوت المفقود للملكة نفرтитى.

لقد سرقت معظم الحلى الثمينة الخاصة به، ولم يبق من التابوت، سوى جسده المحنط بحجامة، وهيكله العظمى. لم يخلف ولداً، ولم يعيش اى عمل من اعماله من بعده، وقد نقش اتباعه هذه الصلاة على الحجر، بلاجدوى: «ربما يعم عملك ويسود، حتى تصبح البطة سوداء، والغراب ابيض، سيسود طالما ان الجبل مايزال ثابتاً. والماء فى النهر لايعود الى الراء»

اما «توت عنخ آتون» النسخة الحية من «آتون»، وهو صهر «اخناتون» ووريثه، فقد خضع للدين الجديد، واطلق على نفسه اسماً جديداً هو «توت عنخ امين» واعاد العاصمة مرة اخرى الى «طيبة» واعاد ثانية «آمون» الى قمة العبادة

لكن هذه الروح الجديدة، استمرت فى اعطاء الحياة للفنون لسنوات عديدة، وحين اُكتشف قبر «توت عنخ امين» فى السنة ما قبل الماضية، ذهلت عيون الرجال بالذهب، والفتنة والسحر والتعم، والروح المتجددة للتمثال، والرسومات، والاثاث، والحلى الموجودة فى القبر، لقد ترك لنا ذلك الملك الشاحب، والنبى عملاً خالداً آخر. فقد كان شاعراً، وقد كتب انشودة مثيرة للمشاعر للشمس، وجدت فى قبور «تل العمارنة» تقول الانشودة:

« لقد اشرقت فى الافق يا «اتون» يا واهب الحياة! حين تشرق بتشوقيت منتظم فى الافق تملأ الارض بجمالك

وقتنتك!

انت جميل وعظيم، زاه ومتألق وسام فوق كل هذه الارض.

واشعتك تعانق العالم، وكل الاشياء التي خلقتها

انك بعيد جداً، ومع ذلك تلمس اشعتك وجد الارض.

وحين تنزل بدعة واطمئنان كي تستريح في السماء الغربية

تغوص الارض في الظلام، وكأنها تموت. حيث يتام الناس وهم

يغطون رؤوسهم، ولا تعود العين قادرة على رؤية العين

الآخري. وتستطيع ان تسرق كل الكنوز التي خبأوها تحت

فراشهم، دون ان يشعروا بك. ان العالم كله ينام لأن الذي

خلقه قد هبط لينام.

لكن الفجر يجرى، وتبرز على الافق متألقا متوهجا وتلقى

باشعتك فتختفي الظلمات، وتنعش الارض ويهب الناس واقفين

على اقدامهم. انت الذي. انهضهم، انهم يغسلون اجسادهم،

ويرتدون ملابسهم، ويرفعون ايديهم بالدعاء لك. وتعود

الارض لسيرتها اليومية من جديد.

يجد القطيع سعادته في الرعى، وتجد الاشجار والازهار

سعادتها في النمو وتجد الطيور سعادتها في الطيران من

اعشاشها وتسبيحك باجنتحتها، وتقفز كل الحيوانات البرية،

كل المخلوقات التي تطير وكل الحيوانات الزاحفة تعود

للحياة، لانك تشرق فوقها.

السفن تجري مع التيار، وعكس التيار، وكل الطرق تفتح لانك

ظهرت

السماك في النهر يقفز في الهواء، لان اشعتك تغلغلت الى

اعماق البحر.

لقد وضعت البيض في رحم النسوة، وخلقت البذور في الرجال،

وانت الذى يجعل الطفل ينمو ويتزعرع فى بطن امة، وتهدهده
حتى لا يصرخ. يالك من مربية رقيقة داخل المرأة.
وحين يولد الطفل، فانك انت الذى يفتح فمه كى يتكلم، وانت
الذى يرى أنه يأكل ويشرب
أنت الذى تنفخ الروح فى الصوص الصغير المحبوس فى البيضة
وتعطيه القوة كى يكسر جدران البيضة وهو يتدفع من
البيضة ويبدأ فى السقسقة، ويقف على قدميه، لانك انت
الذى شحتها بقوة الارادة.
ما أكثر اعمالك واعظمتها! بعضها مخفى عن عيون البشر، ولا
خالق موجود الاك.
لقد خلقت الارض حسب مشيئة قلبك، لقد خلقتها انت وحدك
ببشرها وحيواناتها بالمخلوقات ذات الارجل، التى تسير،
بالمخلوقات ذات الاجنحة التى تطير وانت الذى وضعت كل
انسان فى مكانه، واعطيته كل ما يريد، لغات عديدة، قوانين
عديدة، وبشرات بالوان عديدة.
اشعتك تنعش كل ارض، وحينما تشرق، تنهض كل مخلوقاتك
وتنمو.
انت تشرق، وانت تغيب، ثم تعود ثانية... لكنك هنا فى
قلبي
لا احد يعرفك كما اعرفك انا اهنك، اخناتون الذى جاء من
جسدك، ومن زوجتك الملكة «نيفر- نيفرو- اتون»
نقرتيتى».

الحياة المعاصرة

www.egyptianlib.com

لقد عدت الى المدن الحديثة المشدودة. بعد ان رأيت الظلال. ودفعت الجزية للموتى. قليلاً من الدم. واسترددت مارهنت.

فى البداية كنت قد قررت الا اذهب لرؤيتهم ابداً. فقد كنت معنياً ومهتماً بما يمكن ان يقوله الاحياء. كيف تواجه الروح المصرية هذه الايام، صراع ما بعد الحرب. كنت اعتقد، ان هذا فقط هو ما يعينى. لكن بعد اول لقاء لى مع الحسوية، والبلية، لوجه مصر الجميل، غمرنى شعور باللذة، ونهض أمامى صوت ملوع من الارض، وامسك بى. كان الموتى يصرخون، انهم ظامئون، ويريدون العودة الى الحياة، حتى ولو للحظة واحدة فقط، ان يدخلوا الى هذا القلب الذى مازال دافئاً، ونابضاً تحت الشمس.

والناس الذين يؤمنون بالفكرة، ينقسمون الى ثلاث فئات:
الفئة الاولى، هى الفئة التى لا يعنىها جمال الماضى، لانها لاتعرف شيئاً عن ذلك الماضى، ولاتفهمه، فهم لم يسمعوا صوت حورية البحر، وبلا خوف من الضلال يخوضون غمار معركتهم اليومية بقوة وعزم وتعصب وانتاجية

الفئة الثانية، وهى فئة من الناس الذين يحبون جمال الماضى، ويفتنون بكل وجوه الحياة، ويعرفون ان الوجد الاخير- الفكرة المعاصرة- هى ايضا شبيهة بافكار الماضى، فهى فكرة نسبية وسريعة الزوال. وهم اناس لهم دراية

وعلم، قلقون حسيون يضمنون ايديهم الى صدورهم وينصتون الى حورية البحر.

الفئة الثالثة، وهي فئة من الناس الذين يعرفون ويحبون جمال الماضي، وخلال اللحظات المرعبة المشدودة القصيرة، يفتنون بالاغنية القديمة، الا انهم ينتزعون انفسهم ويبتعدون عنها ويكملون الرحلة، وهم يحملون حورية البحر في ذكرتهم. وعند الضرورة يعلنون عن الحقائق المعاصرة النسبية مباشرة، ويتابعون النضال مثل الفئة الاولى، بعد ان يستمتعوا للحظات مثل الفئة الثانية.

لقد عدت الى القاهرة، الى القلب النابض بالحياة في مصر الحديثة، وكنت انطلق من الصباح حتى المساء، لارى رجال المال، ورجال السياسة، ورجال الصحافة، المثقفين، انهم رجال متحمسون، ماكرون، وطنيون، وماهرون في التحايل، وقد حاولت ان اطلع على الامور بقدر ما استطيع. ماهى الدوافع التى يتذرعون بها لاعادة انبعاث مصر الحديثة؟ كيف يستطيع العقل الشرقى ان يهضم ويتمثل الافكار الاوربية؟ والاهم من ذلك، ما الذى ستتركه حمى ما بعد الحرب على ضفاف النيل، وماهى الصلة والعلاقة بين هذا الأمر، وبين الحقيقة الواقعية الرهيبة والجهولة لعصرها، الاوهى حقيقة استيقاظ الشعوب الشرقية؟

ان كل اسيا، الصين، سيام الهند الجزيرة العربية، سوريا، فلسطين، وتركيا، هذه البلاد كلها فى حالة مخاض وكل شمال افريقيا تستيقظ هى الاخرى، وكل البنى الاستعمارية الاوربية تتزلزل. اذن ماهو دور مصر الخاص فى هذا النهوض الخطر والمصيرى فى العالم الشرقى؟

لقد كنت اتحدث مع مثقف مصرى متميز، فقال لى:

«اذا اردت ان تفهم مصر اليوم. يتوجب عليك ان تضع فى تصورك بشكل واضح، ان تاريخ مصر الحديث ينقسم الى مرحلتين اساسيتين: من محمد على حتى الحرب الاوربية، ومن الحرب الاوربية حتى الوقت الحاضر.

محمد علي هو الاب الشرعي لمصر اليوم، انه رجل الباني ولد في «كافالا»
وقدم نفسه كموظف في مصر، ثم اصبح باشا في عام ١٨٠٥ وقد راتته
الفرصة اثناء ضعف الدولة التركية عام ١٨٤٠، ونجح في تحقيق حكم ذاتي
موسع لمصر.

كان يمتلك روحا عظيمة، وعقلاً متنبهاً. ففتح مصر للحضارة الاوروبية،
ودعا مخططين ومنظمين اجانب، فاعاد بناء الجيش، ونظم التعليم والزراعة،
وارسل مبعوثين مصريين من الشباب ليدرسوا في اوروبا، لقد بعث نفسه
جديداً ديناميكياً في حياة ارض مصر. محمد علي هو «بيتر العظيم»...
بالنسبة لمصر.

اما اكبر اولاده ووريثه علي الحكم فهو اسماعيل، وهو رجل موهوب،
معتد بنفسه، ومبذر، لقد انجزت مصر الحكم الذاتي الداخلي بشكل كامل عام
١٨٦٦، اما بالنسبة للمسائل الخارجية فقد سمح لمصر ان تبرم اتفاقيات
تجارية، وعقود ديون، واخيراً وفي عام ١٨٧٣، سمح له ان تدخل الى كل
العلاقات والميادين الخارجية على الا يلحق ذلك ضرراً بالمعاهدات السياسية
التركية على اى حال، وبسبب هذا الاسراف المفرط، زاد اسماعيل الدين الوطني
لمصر في عام ١٨٧٦، حتى وصل ذلك الدين الى واحد وتسعين مليون جنيه
، مما جعل بريطانيا وفرنسا، وهما من اكبر الدائنين، تخضعان مصر لمراقبتهما
الاقتصادية وقد اجبرنا على القبول بالضغوط بالاجنبية مما جعل الوظائف
العليا في مصر تسقط في ايدي الانجليز.

ثار الناس وقام عرابي باشا وهو رجل وطني متحمس وجريء، ونظمه ثورة
وطالب بان يخرج الاجانب من البلاد، وان تشكل حكومة برلمانية وقد قتل
العديد من الاجانب وتحصن عرابي بالاسكندرية. مما جعل البحرية الانجليزية
تقصف المدينة وتنزل عليها قواتها.

وهكذا بدأ الاحتلال الانجليزي، وقد فعل هذا الاحتلال العديد من الامور
الجيدة، لقد جاء بالقوانين، ونظم الخدمات وصمم على العمل من اجل انجاز

نظام اقتصادى جديد لكن الشعب المتنور كان ينظر دائما الى الغرباء بنفاذ صبر، وكان يريد ان يتخلص منهم، كى يصبح سيد وطنه.

وفى عام ١٩٠٠، ظهر رمز قيادى فى مصر، فقد ظهر كل المتحمسين والمثقفين على الساحة السياسية فى مصر، وظهر مصطفى كامل، الذى شكل الحزب الوطنى، وكان يرمى من وراء تشكيل هذا الحزب الى تحرير الامة المصرية

وكانت حملة اعلامية كبيرة فيما يتعلق بحقوق مصر قد نشطت فى الخارج، وقد اجتمع مجلس الحزب فى برودكسل عام ١٩١٢ واعلن استقلال مصر. والحرب ضد محبى الانجليز، والاقباط الذين كانوا يعتبرون فى ذلك الوقت ادوات فى ايدى المجترة.

لكن كل هذا النشاط، وكل هذا الاندفاع نحو التحرير. كان مقتصرًا على دائرة ضيقة من المثقفين المصريين، اما الشعب، والفلاحون فقد ظلوا غير مباليين، اذ انهم لم يكونوا على تماس مع القضايا المجردة المتعلقة بالطبقة المتعلمة. بل على العكس من ذلك فقد كان الفلاحون راضين لان الضرائب ضبطت ونظمت ووزع الماء بشكل عادل، ولم يستيقظ الفلاحون الا بسبب الحرب الاوربية فقط.

وانطلق رفيقى يشرح بفكر صاف مشكلة مصر، ليس المشكلة السياسية والاقتصادية فقط، وانما مشكلة حضارتها بشكل عام.

«الثقافة الاوربية التى ادخلها محمد على وخلقاؤه بشكل كبير لم تخرج من اوساط عامة الشعب، ولم تكن نتيجة قناعاتنا المحلية او عقليتنا الشرقية الخاصة. وهكذا فان ثقافتنا الآن ليست اكثر من ثقافة تابعة ومقلدة.

وهذا هو السبب الذى جعلنا عاجزين عن خلق وابداع اى شئ، لا فى المجالات العلمية ولا فى المجالات الفنية، ان عملنا الاصلى والاصيل هو اللاهوت.

لقد قلدنا الثقافة الغربية تقليد العبيد التابعين. وفغرنا افواهنا تجاه كل

شيء قادم من أوروبا ، نحن ايضا نتبع الضرورات العالمية المعاصرة . هناك رياح جديدة تهب على حياتنا قادمة من بريطانيا وفرنسا ...

نحن ايضا لنا مفكرونا الذين يقولون بالمساواة بين الجنسين سياسيا واقتصاديا ، ولنا كتابنا وشعراؤنا الذين تأثروا بفيكتر هوجو ، والرومانسيين . نحن ايضا لدينا عدد وافر من الترجمات للأعمال الاوربية فى العلوم ، وعلم النفس ، والقانون ، الرواية والدراما .

لقد اتسعت دائرة الصحافة بشكل كبير ، خاصة بعد الحرب وهذا يعود لسببين :

السبب الاول ، هو ان الاهتمامات بالقضايا السياسية والاقتصادية قد اتسعت دائرتها هذه الايام .

السبب الثانى .. ان هناك الكثير من الناس الذين يستطيعون القراءة الان عام ١٩١٧ ، كان هناك حوالى ثمانية بالمائة فقط من الناس ممن يعرفون القراءة والكتابة ، اما الآن فهناك اعداد كبيرة من المدارس التى تقوم بتأدية خدماتها ، والدراسة فيها الزامية .

هناك خمسمائة طالب ممن يرسلون الى أوروبا سنويا بمنح حكومية . من اجل دراسة الهندسة ، والكيمياء ، والقانون والطب . وقد بلغت حصة هذه البعثات حوالى مئتى الف جنيه فى العام .

يجب ان نأخذ اقصى ما نستطيع من المعرفة من أوروبا . فبفعل الضرورة ، نجد ان المأزق الذى تعيشه كل الشعوب الشرقية ، مأزق مأساوى : هل يريدون ان يوصدوا الباب فى وجه الحضارة الغربية ، ويبقون متخلفين خارج اعتبار الحياة الحديثة ، تلك الغنيمة السهلة لكل الشعوب المتقدمة . او انهم يريدون تقبل الحضارة الغربية ، وعندها سيكونون مجبرين على تقليدها بشكل اعصى ، ويلتقون جانباً اساليب حياتهم البسيطة والاصيلة فى الاقتصاد والاجتماع والحياة الروحية .

ليست هناك طريقة اخرى .

فقط ، حين تسقط الحضارة الغربية ، وحين تتلاشى بناها الرائعة وتبتدد ، سوف يصبح بإمكان العالم الشرقى ان يعود مرة اخرى . كى يقدم لاوروبيا ماكان يقدمه لها دائما : البذور الجديدة . ذلك اننى لااعتقد ان كل الاديان التى تشكل البذور للعالم والتى شكلت رحم هذه الارض . قد جاءت بمحض الصدفة من الشرق . ذلك ان الشرق يخزن الجنون والنيران ، والغرب يقدم الغذاء ، والمصافى ، والتحليل التى تحيل اللهب الى ضوء .

حتى الآن ، هكذا يتم هذا التفاعل المرعب - ذكر وانثى - هكذا تقسم الحياة على كوكبنا والشرقى هو زوج اوروبيا « كنا نسير تحت اشجار النخيل على ضفاف النيل ونحدث ، وكان كل صراع مصر الدرامايتكى لمرحلة ما بعد الحرب مكشوف امامى كيف استطاع الناس بفعل الصبر والعنف ان يستقيظوا ويخرجوا من ظلمة عبوديتهم ، وكيف اخذ هذا الشعب يبحث ويتوقف للوصول الى التنوير والحرية .

لقد استطاع الفلاحون ان يفهموا عبوديتهم للمرة الاولى منذ الحرب العالمية . لقد ارسلوا اكثر مايزيد عن مليون نفس للحرب لقد صودرت حيواناتهم ومحاصيلهم ، وعيئت كلها للحرب . وتحت التهديد اصبح اربعون الفا من الفلاحين عمالاً يعملون حسب حاجة جيش الخلفاء . فى نفس الوقت كان هناك هياج عظيم يختمر ويتجمع فى هذه الارض ، كانت المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية لمصر تتغير . كانت هناك صناعات صغيرة تتطور وطبقة جديدة من الرأسماليين تظهر ، والاسياد القدماء يسقطون ، وبشكل مواز لهذا التطور ، قام العمال الذين عملوا فى صفوف الجيش بتشكيل طبقة عمالية واعية لأول مرة فى تاريخ مصر . اضافة الى ذلك فقد عانى الفلاحون بشكل مرعب من الحرب ، لقد قتلوا واخذت حيواناتهم وممتلكاتهم منهم واستبدل الموظفون المدنيون بالموظفين الانجليز ، الذين كانوا يتقاضون رواتب عالية .

لقد انتهت الحرب ، وانتظر المصريون انجلترا ، كى توفى بوعددها ، وتحرر مصر لكن انجلترا رفضت ذلك فانفجرت الاضطرابات ، وشكلت الاحزاب الوطنية

المشطرة، وأجريت الانتخابات ثم الغيت بعد ذلك. هاج الناس وثاروا وأخذت الأرض تغلى وتضطرب، واتحد الفلاحون والاقباط، وطالبوا بحريتهم، واجتمع الهلال والصليب معاً في القاءات الجماهيرية والعطل الوطنية. كل صافرة الدين ذات يوم، عاد الضمير والوعى الوطنى لتجميعه. وعبر الشعب العقبة الأولى من عقبات التحرر وهى عقبة الدين، وقد وصلوا أخيراً إلى المرحلة الثانية، وليس المرحلة الأخيرة، مرحلة الأمة.

كنت أتحدث مع زعيم قبطى بارع ومؤثر قال لى: «هناك وسيلة واحدة للشعب كى يستيقظ، وهى الوسيلة الوحيدة من أجل تجديد اقتصاده، لدى مصر مساحات واسعة من الأرض، وهذه المساحات يمتلكها عدد قليل من الاقطاعيين. وهناك الملايين من الفلاحين ممن يعملون فى هذه الاراضى ويموتون من الجوع، فكيف يمكن أن نواجه هذه المشكلة؟»

عطس صديقى، فكررت السؤال «ماهى وجهة نظرك فيما يتعلق بمصادرة ملكية الأرض».

فكر قليلاً، بالطبع كان يفضل الاكون احد اولئك الحقى الطائشين. بالطبع سيكون أكثر راحة لنا، وأكثر بلاغة أن نقيد انفسنا بالكلمات العظيمة والجسيمة مثل «الوطنية»، «الاخوة»، «الحرية» و«روح الفلاح». لماذا نتحدث عن جسده، عبث بالتلفون بعصبية وتوتر، ثم تركه، وقال لى بتصميم وحزم: «مصر ارض غنية جداً، لدينا موسمان او ثلاثة مواسم للحصاد فى السنة. ان قطعة صغيرة من الأرض تستطيع ان تطعم عائلة بكاملها، وبسهولة»

- «أذن؟»

- «أذن يجب أن يتم ماشرت اليه»

وتجنب الإشارة الى المعنى الدقيق والمحدد «مصادرة ملكية الاراضى».

- «يجب ان نكون على درجة من الذكاء هنا، فهناك أراضٍ موقوفة»

- «أذن؟»

«اعتقد اننى قد أجهت على سؤالك»

أجل لقد اجاب، وقد غادرته بقلب مقبوض، لقد كان مصير الفلاح، أخينا الفلاح، هذا الانسان غير المحظوظ، ذلك الشخص المحتقر الذي يعمل مثل الكلب ويموت من الجوع، لقد كان ذلك المصير يملاً قلبي بالالم، والسخط والمرارة.

العالم الاسلامي يستقطب، وبناء على اخر احصائية صدرت عام ١٩٢٣، فقد وصل تعداد سكان العالم الاسلامي مئتين وسبعة وسبعين مليون نسمة. وقد قدر على مصر ان تلعب دوراً رئيسياً في هذا العالم، فموقعها الجغرافي الذي يقع في مركز العالم الاسلامي. واتصالاتها اليومية، وقاسمها المباشر مع أوروبا وتقدمها السياسي المتسارع، والثورة الاقتصادية التي حدثت خلال السنوات القليلة الماضية، كل ذلك جعلها اكثر حساسية وتقدمية وجعلها تقف في طليعة المعركة التي يخوضها العالم الاسلامي.

من المغرب الى الصين، ومن تركستان الى الكونغو، بدأ المسلمون الذين اصبحوا على اتصال مع اعدائهم الاوروبيين يدركون معنى الروابط الحميمة العامة التي توحدهم وهذه الروابط هي، الدين، التراث، والمصالح الاقتصادية وبشكل بطيء، لكن مؤكد، وبالرغم من العقبات، والفهم الخاطئ والمعوقات، نجد ان الوحدة المرعبة بين شعوب العالم الاسلامي قد بدأت تتجسد امام عيوننا، وهي قريبة جداً من عيوننا لدرجة اننا لانستطيع رؤيتها، وحين نرى شيئاً فان هذا الذي نراه يكون جزءاً صغيراً منها، وليس كلها.

فهـ «مصطفى كامل» و«سعد زغلول» و«ملك الحجاز الجديد» و«لوثر الجديد» و«علي جناح» زعيم المسلمين الهنود و«غاندي» زميله الحميم في العمل. كل هذه الرموز ليست مجرد شخصيات ممتعة ومشوقة. انها شخصيات تعبر عن اختصار ثورة استثنائية مرعبة، انها الاصوات القليلة الواضحة التي اخذت تعبر عما كان يعجز عن التعبير عنه، اوصياغته العالم الشرقي الاسلامي.

اضافة الى ذلك، فان هناك فكرة جديدة، تسير جنباً الى جنب مع الدين،

وتحاول أن تشكل نفسها، كي تحرك وتشير شعوب آسيا وأفريقيا، وهذه الفكرة هي الوطنية. لقد استيقظ الوعي للمرة الأولى لدى هذه الشعوب أن الدين لن يظل قادرا على لعب الدور الرئيسي في أفعالهم. لأن فكرة الوطنية الجديدة. تشحنهم الآن بالحماس، وتوحدهم

لقد استيقظت العديد من الشعوب الشرقية، والفضل في ذلك يعود إلى الحرب العالمية التي أثرت فيهم على النحو التالي:

١- أن استعملهم واستخدمهم كإدوات في أيدي الأوروبيين أثار الحس الوطني فيهم. لقد علمهم الأوروبيون أن لهم حقوقا وأنهم إذا ساعدوا الحلفاء، فإن الحلفاء سوف يمنحونهم حريتهم بعد أن يكسبوا الحرب.

٢- أن الملايين من المصريين والهنود والسنغاليين والجزائريين قد جندوا للقتال في صفوف الجيوش الأوروبية وهناك تعلموا كيف يخوضون غمار الحرب الحديثة. وكيف يستوعبون بشكل كامل المعدات العسكرية الحديثة. كذلك فقد علموا أكثر من ذلك: أن يقتلوا الأوروبيين.

٣- أن هذا الحماس اليومي مع الأوروبيين، جعل الشعوب الشرقية تعرف الأوروبيين بشكل أفضل، لقد رأوهم عن قرب، ورأوا الكثير من دوافعهم الثقافية، والخلافات التي تدور بينهم، وتضارب مصالحهم الذاتية، وهكذا لم يعودوا يخشونهم.

٤- لقد انتهت الحرب، وعادوا إلى بلادهم وقد تغيروا بشكل كامل. واستيقظوا وتخصصوا بالمعرفة التكنولوجية وشحنوا بالنظريات الإعلامية الثورية، لقد عرفوا أن لهم حقوقا، ولذلك فإنهم يطالبون بها، لقد أصبحوا خميرة الثورة المرعبة بالنسبة لشعوبهم.

٥- أما الأوروبيون، لم يفوا بوعودهم، بل لم يقدموا لهم حتى الحرية المجردة التي وعدوهم بها من أجل أغرائهم بدخول الحرب. بل لقد ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك، حين عملوا ضد مصالحهم الذاتية، واستخدموا أكثر من مرة وسائل الضعف من أجل إطفاء الشموع التي رأوها تنير ظلمة الجماهير

الشرقية.

لكن الضوء- وهذه هي طبيعته- يتعاضد من تلقاء ذاته. انه يتصاعد كي يصبح لهباً.

كذلك يمكن اضافة عنصرين اساسيين الى هذه الاسباب، كان لهما اسهامها في ايقاظ الشرق. وتوحيدده ضد الغرب وهذان العنصران هما:
أ- ان اى فعل هذه الايام، فى أى مكان كان على هذه الارض سوف يكون له صدىء المباشر فى القارات الخمس كلها. ان انتصارات الجيوش الشرقية فى المغرب او شتىهاى، تنقل مباشرة بفضل وسائل الاتصال الحديثة، وتصل الى كل الشعوب الشرقية حيث تشحنها بالحماس والايمان. وهذه الظاهرة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ البشرية.

ب- اما روسيا، فانها تقوم بتنظيم ثورة شاملة، تشير الشرق، وتنظم نشاطاته، وفعالياته، وتشير مشاعر الكره لدى الشعوب الشرقية ضد الرأسمالية الاوربية والامريكية انها تسخر الاشياء البسيطة لحملاتها الاعلامية. وتقول بانه يتحتم على كل الشعوب ان تطرد الرأسماليين الذين يستغلونها وان تصبح هى سيدة اوطانها.

وهكذا وبناء على هذه الاسباب الكثيرة والمختلفة كان يجب على الشعوب الشرقية ان تستيقظ، وعلى الثورة الا تهداً وكما هو طبيعى، فقد لعب العنصر الاقتصادى دوراً رئيسياً فى هذا المجال ايضا لقد توسعت وتشعبت ضرورات الحياة بعد الحرب وتغيرت الظروف الاقتصادية بشكل كبير، وتقدمت الشعوب المتخلفة، بفعل الضرورة خطرات واسعة الى الامام.

انظروا الى مصر مثلاً، فى فترة مبكرة، كان الاجانب هم المؤهلون لاستغلال الثروة، فى ادارة مشاريع مصر التجارية، او بناء مصانعها، او انشاء بنوكها، او القيام بالمشاريع التكنولوجية الكبيرة اما الآن فان المواطنين المصريين، قد اخذوا يحلون محل الاجانب فى كل مظاهر الحياة الاقتصادية وهم يديرون ذلك بكفاءة عالية. وهم لا يشعرون انهم لم يعودوا بحاجة الى

هؤلاء الاجانب فقط. بل انهم يشعرون بالكره تجاه المعوقات التي يصنعونها في طريقهم. ان الطبقة المدينية الجديدة التي ظهرت الى حيز الوجود بعد الحرب، وجدت ان هناك حاجة ملحة ومستعجلة للتخلص من الاجانب.

ان الثورة الاقتصادية ودخول المواطنين المصريين كعنصر رئيسي فيها. كان له التأثير العميق في الولادة الجديدة لاقتصاد البلد.

لقد تعودوا ان تكون التجارة في ايدي الاجانب، وتوريد وتصدير البضائع يجب ان يتم فقط على ايدي وكلاء اجانب، أما الان فان المواطن المصري يتعامل مباشرة مع الشركات الاوربية وهكذا فقد اجبر على تبني طرق التمويل الاوربية، فهو يوقع فواتير المبادلات التجارية، وهو شئ لم يتعود عليه ابدا من قبل، وهو يبني البنوك ويدخل الى عالم الحداثة.

اما الصناعة فقد كانت في السابق صناعة بدائية فالصناعات الخشبية، والحديدية، والنحاسية، والقطنية كانت تعمل بادوات تعود للقرن الوسطى. اما الآن فقد قام المواطنون باستيراد الآلات الاوربية، وبنوا المصانع واتبعوا الوسائل الهندسية المتقدمة.

والآن يمتلكون المدارس التجارية، ومدارس المعاملات التجارية. لقد تغيرت وسائل النقل، فالسيارات تسلت الى كل مكان وربطت المدن في النهاية مع بعضها البعض بشبكة المواصلات، ونفذت الافكار والاساليب التجارية بشكل تام.

ولاسباب اقتصادية إختفى نظام تعدد الزوجات وزادت نسبة الزيجات بين الرجال المسلمين، والنساء الاوروبيات والان نجد العائلات التي تنتمي الى طوائف مختلفة تعيش تحت سقف واحد، واغلب هذه العائلات مسلمة ومسيحية. وهذا شئ لم يكن يسمع به من قبل ونتيجة لهذا التواصل الذي تسبب به اقتصاد ما بعد الحرب، فقد تبدلت التقاليد الراسخة وتغيرت الافكار، واتسعت المدارك،

ان العديد من الشرقيين والغربيين ينادون من خلال اساليب التعبير الجميلة

بتفوق وسمو الروح الشرقية ويعلمون من خلال ذلك الشعوب الرومانسي ان الضوء سوف يطلع ثانية من الشرق.

اذا، من اجل ان نقف على ارضية راسخة، ومن اجل تجنب عدم المصادقية التي تحيط بالنبوءات دائمة، اعتقد انه يتوجب علينا ان نربط انفسنا بهذا التحول الذي لا ريب فيه، في الثورة المعاصرة في العالم الشرقي، وان تقوى انفسنا بالدليل المباشر والثابت

صحيح انه لا توجد حضارة شرقية الآن، وصحيح ان الانسان الشرقي بسيط وساذج وان الزمن قد تجاوزه وهو غير متكيف مع الحياة المعاصرة، ولكن من اجل ان يبدع هذا الشرق حضارته الخاصة، فانه يتحتم عليه ان يربط نفسه بفعل الضرورة بالغرب. عليه في البداية ان يكمل مرافقه بالحضارة الغربية، وقد بدأ ببناء مرافقه، وتبنى وسائل التقنية الاوروبية في الانتاج، الوسائل الجديدة في الصناعة والتجارة، والوسائل التحليلية النقدية في التفكير، وهو مصمم على تبنى الطريقة الشرقية في الحياة جنباً الى جنب مع العلم الغربي

والمستقبل هو ملك الشعوب التي توفق بين شيئين هامين:

١- التكنولوجيا الحديثة

٢- العقيدة الواحدة، ولا اقصد هنا الدين إنما الاجتماع على مبدأ مركزي، ضارب في ضمير الناس. الآن اوربا هي الاولى، والشرق يحل في المرتبة الثانية وقد بدأ الشرق خاصة في فترة ما بعد الحرب، يدخل الى عالم التكنولوجيا وبدأ يصبح منظماً اما اوربا فانها تسعى نحو نهايتها بثبات، وتفقد كل مبدأ مركزي يجمعها. ان الحرب العالمية القادمة لامحالة سوف تتبدد هنا.

اجل هنا بكل احتمالاتها وعنفها، وعندها سوف ينتقل مصير العالم من الغرب الى الشرق.

وحين اقول الشرق، فأننى اعنى روسيا ايضا.

کفافى

بلا أدنى شك، يعتبر الشاعر «كفافى» ICARAFY هم الرموز انشغافية
الفذة النادرة فى مصر، وأنا اجلس قبالة الى احدى الطاولات الصغيرة، فى
داره الفخمة الرحبة، كنت احاول استجلاء طلعتة فى ذلك الضوء الخافت
الشحيح، وكانت الطاولة بيننا مملوءة بكؤوس الويسكى و«الماستيما» وهى
عرق مصرى مصنوع من الثمر، وكنا نشرب، لقد تحدثنا عن اناس مختلفين
وعن افكار شتى. كنا نضحك، ونغرق فى الصمت، وبعد قليل من الجهد نعود
الى الحديث مرة أخرى وكنت احاول ان اخفى عواطفى وانفعلاتى، وسعادتى
خلق قناع الضحك. فهناك يجلس امامى الرجل الكامل الذى يمثل بهدوء انجاز
الفنى بكل كبرياء، انه ذلك الشيخ الزاهد الذى قهر حب الاستطلاع،
والطموح، والحسنة، واخضعها الى نظام الزهد الابيقورى القاسى.

لا بد انه قد ولد كاردينالا فى فلورنسا فى القرن الخامس عشر. وعمل
كمستشار سرى للبابا كمبعوث شخصى فى قصر دوق «فينيسيا»، يقضى
سنوات عصره يشرب، ويحب، ويقضى وقته يدور حول القنولات، يكتب،
يحفظ بصمته، ويناقش اعظم الشياطين، ويتورط فى القضايا الفضائحية
للكنيسة الكاثوليكية.

لقد تبينت ملامحه فى العتمة، فى الديوان، تبدو تعابيره فى نفس
الوقت، شيطانية مأكرة، وتهكمية قوية. اما عيناه السوداوان الجميلتان، فانهما
تلمعان فجأة حين يسقط عليهما شعاع قليل من ضوء الشموع. ثم تغيران
مرة اخرى، فتبدوان صافيتين، ذابلتين، متعبتين.

اما صوته فقد كان ينبض بالتكلف والتصنع، والالوان، وقد كنت مسروراً
ان روحه الحكيمة المأكرة، اللعوب، المداهنة، المنحقة، الفاتنة، قد انعكست فى

هذا الصوت.

وهذه الليلة، كما رأيته وسمعته للمرة الاولى أدركت لم كانت حكيمة هذه الروح المعقدة، المشقلة بالهموم، لهذا الرجل الذى كرس نفسه للتطهر من الشهوات. ونجح فى العثور على أسلوبه الفنى الخاص، هذا الأسلوب الذى لانظير له، وحافظ على هذا الأسلوب.

هذه المقطوعات الشعرية المرتجلة بشكل غير مقصود، والمدرسة بدقة باللغة، وهذه اللغة المتناقضة بترو مقصود، وهذه الغنائية غير المتكلفة، فى شعر «كفافى»، هى الشئ الوحيد الذى يعانق روحه، ويشف عنها.

الجسد والروح شئ واحد فى قصائده، ونادراً ما حدث مثل هذا الاتحاد العضوى الفعال فى تاريخ الادب. أن «كفافى» هو احد الزهور الاخيرة الباقية للحضارة، هذه الزهور التى تجمع الشنائية المتناقضة فى اوراق ذابلة على اغصان طويلة، وسيقان مريضة لابدور فيها.

لقد امتلك «كفافى» كل الخصائص المميزة النموذجية للرجل الفذ والفريد فى زمن الانحطاط، لقد جمع الحكمة، والسخرية، والحسية، والسحر، وفائض الذكريات.

انه يعيش كما لو انه الشخص المختلف، والشخص الوحيد الشجاع. انه يتكىء على حاشيته الناعمة، ويحرق من خلال نافذته وينتظر ظهور البرابرة، انه يحمل ورقته التى تحتوى على المذائح المقدسة الوائعة الاخيرة. انه يرتدى ملابس العطلة الجميلة المرسومة بعناية، وينتظر. لكن البرابرة لا يأتون، ومع هبوط الليل، يتنهى بنعومة، ويطلق ابتسامته التهكمية تجاه طموحات روحه البريئة الساذجة.

هذه الليلة نظرت اليه، وتمتعت بروحه الشجاعة التى خمدت وهمدت وفقدت قوتها وشجاعتهما والتى اضطرت ان تقول، بعد فوات الاوان، وداعاً لاسكندرية التى يفتقدتها.
قلت مقسماً:

«الأتريد ان تشرب ابداً من هذا الخمر أنه من «تشويس»»، لماذا اصحبت
هادئاً جداً؟»

انحنى وملاً كأسى. فرأيت للحظة ان هناك ايماءة سخرية ونبل فى عينيده.
لكننى بقيت صامتاً لاننى كنت افكر بقصيدته الرائعة «الرب ينبذ انتونى» لوم
انسبس بكلمة، لاننى كنت اعيد تلك القصيدة ببطء بينى وبين نفسى:

عندما تسمع، فجأة عند منتصف الليل

مجموعة لامرئية وهى تعبر

تعزف موسيقاها الرقيقة، وصرخاتها المنطلقة

لاتتفجع على حظك الذى يوقع بك الآن

واعمالك التى فشلت، وخطط حياتك التى استحاليت الى

اوهام.

كانك كنت تعد لذلك منذ مدة طويلة

وكان الشجاعة تقول وداعاً للاسكندرية التى تغادرها.

وفوق ذلك يجب الا تستغفل، لانقل لنفسك انها كانت مجرد

حلم، وان اذنيك قد خدعتك لانتوكت عند هذه الآمال التى

لاجدوى منها كأنك كنت تعد لذلك منذ مدة طويلة، وكان

الشجاعة التى اصبحت جزءاً منك انت. انت الذى يستحق مثل

هذه المدينة.

تقدم من النافذة بخطوة ثابتة.

واستمع بعواطفك، لكن بلا توسلات وتذمرات الجبان.

استمع الى الاصوات وكأنها المتعة الاخيرة

استمع الى الآلات الموسيقية المزهفة لهذه الفرقة الغامضة

وقل لها وداعاً، وداعاً، للاسكندرية التى تفتقدها.

تلك الامسية، كانت وليمة الوداع. فلن أنسى تلك الامسية، لاننى اعتقد

انها تمثل الفترة الحاسمة المخرجة التى نعيشها. انها الخطر المعلق فى الهواء،

فالقلق يخرق حتى معظم ساعات المودة التي نتملق بها ، ويمطى نكهة الحرب والصراع لعلاقات الصداقة.

كنّا حوالي خمسة عشر شخصاً ، كنّا نأكل معاً ، ونضحك للحظة ، ثم بعد ذلك استدار نحوى ذلك الرجل الاصفر منى سناً ، وقال لى بكآبة وقلق:

« يجب ان نتحدث هذه الليلة قبل ان تفادر فان الكثير مما كتبته فى «Anágenesis» لا تقبله»

وقد وقف ينتظرنى ، واخذ يرتعد من الحب ، والكرة ، وهو ينظر الى .
وانا الذى سررت جداً بالجيل الشاب ، هذا الجيل الذى تستمع اليه اذننى بانصات شديد ، بتنبه شديد ، بتلهف ، واشتياق ، وحين اكون فى حضرتة ، اكون فى غاية السعادة . أجبته ضاحكاً:

« سوف تتصارع ، انت تطرح وجهة نظرك وانا اطرح وجهة نظرى ، وندع الموجودين يفصلون بيننا » جلسنا كلنا حول طاولة كبيرة ، وعيننا الدكتور «بول بيترىدز» رئيساً علينا ، وبدأنا الصراع.

كنت ادرك اننا لن نتحدث عن الفن ، وقبل سنوات قليلة كانت دائرة النخبة المثقفة فى الاسكندرية تجلس حتى الفجر تناقش «بالاحاس» ، و «كفافى» وقضايا الفن وعلم الجمال ، وتتلو الاشعار . والآن ، وبالرغم من وجودى معهم لعدة ايام ، فاننا نادراً ما تحدثنا ، او حتى مررنا مرور الكرام على الدارسين والاعمال الادبية . لقد تبدلت الروح ، لقد غير الخط الامامى فى المعركة اتجاهه ، لقد تغير كل هذا الذى يبدو قديماً بالنسبة لنا ، الزخارف اللفظية الفارغة ، الانشغال بالافكار الرجعية والناس المتخلفين .

هكذا فالليلة ، سوف تدور رياح الجدل حولنا . والجيل الشاب الشاحب ، يتحدث باقتضاب وبفعالية ، تماماً كما يتوجب على الجيل الشاب ان يتحدث ، بلا تردد او احجام ، كانوا متصلبين فى آرائهم ، لا يتزمررون عنها ، لم يخادعوا ولم يتركوا مجالاً لتعدد وجهات النظر . هذا هو ما يؤمنون به .

لقد تحدثنا بعواطفنا ، كما لو اننا ندلى باعترافاتنا ، حول مطالب الانسان

المعاصر واحتياجاته، وحول واجبتنا، لقد تحدثنا عن الفصائل المختلفة المنظمة، والتي تطوع كل واحدنا للدفاع عنها، وعن الوسيلة التي يمكن ان يقاتل كل منا من خلالها.

ولم يمض وقت طويل على تلك الالامسية الحميمة، حتى تحول الاجتماع الى مجلس للحرب، كما لو اننا كنا حقاً في حالة حصار، وقد اجتمعنا معاً لنقرر طريقنا الى الفعل.

وقد انقسمنا الى معسكرين رئيسيين، بعضنا ايد فكرة ان الاقتصاد هو المحرك الاول للتاريخ. فالدوافع الاقتصادية هي وحدها التي تلقى الضوء على قيمة الحياة وهي التي تقود تفكيرنا باتجاه الفعل. اما الدوافع الاخرى فهي دوافع ثانوية وفرعية.

اما الآخرون فلم يوافقوا على ذلك، وقد قال أحدهم في محاولة منه للتعبير عن افكاره:

- «انا اشك في ان تكون القضايا الاقتصادية قادرة وحدها على توضيح كل شيء. وانا لا اقبل بهيمنة هذا النظام الاقتصادي العالمى الا اذا كنت مجبراً على ذلك» واضاف،

- «اذا كنت مجبراً، بمعنى آخر، اذا كنت مجبراً خلال النظرية لممارسة الفعل، فان اى انسان يعاين ويدقق في تطور الفعل الانسانى، سيجد نفسه في بعض الاحيان مجبراً ايضاً على تقبل العنصر الروحى كمحرك مسيطر للتاريخ. من ناحية اخرى، فان من يتخلى عن النظرية، ويخوض غمار الفعل يكون مجبراً على تقبل نظرية العنصر الاقتصادى فقط، وذلك من اجل ان يوجد ارضية ثابتة، يسير عليها ويبنى. والا فانه سوف، يضيع نفسه في مناخات التأمل الصوفى الخطره الغامضة. حين جاء دورى لاعطاء وجهة نظرى، كان على ايضاً ان اعترف باننى قد اقتنعت الى حد ما، بهذه مادية للاصدقاء واصدقائى يدعوننى الى مادية الرحيل، لكن اللحظة التي تحيط بنا هي لحظة حاسمة وخطرة جداً، مما لايسمح لنا بالشعامل بالعواطف. وكان

اصدقائى ينظرون الى بتجهم وينتظرون.

وقد حاولت من خلال كلمات قليلة ان اعبر عن عقيدتى:

- «انا من انصار مبدأ الاحدية- القول بان ثمة مبدأ غائياً واحداً، كالعقل او المادة- وانا اشعر بعمق ان المادة والروح هما شىء واحد، وفى داخلى اشعر فقط بالجوهر الواحد. لكن حين ادفع الى التعبير عن نفسى كما هو الحال هذه الليلة، وان اصوغ هذا الجوهر، فاننى ادفع بشكل طبيعى الى التعبير عن نفسى بالكلمات، اى بالمنطق، وهكذا، باتباع طبيعة المنطق، فاننى اجد نفسى مجبراً ان افضل مايتعذر فصله بالطبيعة.

وبما ان المدارك الانسانية محدودة، لذلك فاننى خارج كل الاتجاهات والمصادر المطلقة للواقعية، احاول فقط ان اميز بين شيئين، الشىء الاول الذى نطلق عليه اسم «المادة»، والثانى الذى نطلق عليه اسم «الروح» هناك كلمة واحدة فقط، المادة، او الروح. وكما افهمها فانها تعبر عن جزء من الادراك الاول، لان كل كلمة من هاتين الكلمتين قد انتقص منها عن طريق الاستعمال والعرف، حيث اصبحت تدل على مضمون ضيق ومحدد.

ولهذا فاننى حين اريد ان اصوغ بكلمات كل واحد منهما، فاننى ايضاً افصل الى شيئين حتى الدوافع العظيمة المحركة للتاريخ، سواء اكان ذلك بالنسبة للأفراد او الجماعات، وهذان الشيئان هما: الجوع والعواطف.

اننى استعمل كلمة «العواطف» ولم استعمل «الروح» لان هذه الكلمة قد البست مضموناً ايديولوجياً روحياً مركزاً، وهو مضمون صيهم كريبه بالنسبة لى. و «الروح» تشتمل على قدر كبير من «المادة» اكثر مما يتصوره الماديون، تماماً كما تحمل «المادة» قدراً كبيراً من «الروحانية» اكثر مما يتصوره المثاليون. ولهذا فاننى استطيع ان أعلن عن افكارى بفظاظة كالتالى: الجوع، وهو علة اقتصادية، هو بالطبع الدافع الاول. هذا هو الحال فى أغلب الاوقات. لكن فى الاوقات الحاسمة والخطرة فان الغضب، الكره، الحب، والغزائر المتولدة عنها.. الخ، يكون الدافع الاول فيها هو العواطف.

على اى حال، وبينما، على ما قلنا سابقاً، فاننا حين ننظر بعمق الى اعماق
اختلافاتنا، فاننا نراها تختفى»
هكذا تحدثنا، وكان الفجر على وشك البزوغ.



منذ سنوات وسيناء، ذلك الجبل الذى وطأه الله، تلمع فى ذاكرتى مثل قمة
لا سبيل الى الوصول اليها. البحر الاحمر، الجزيرة العربية، البتراء، ميناء ريشو
الصغير، قافلة الجمال الطويلة التى تعبر الصحراء، الجبال الغادرة الوحشية
التي أن فوقها اليهود بعد ان تاهوا فى الصحراء اربعين سنة واخيراً، ذلك
الدير الذى بنى فوق ذلك المرج المحترق الذى لم يفن ولم يهلك. هنا، يتجسد
الهدف الذى كنت أحن الى المجازة طوال هذه السنوات التى كنت اسير خلالها
بغير هدى فى المدن الكبيرة.

كان «الجليل»، بأناشيد رعاته الرقيقة، بجباله الهادئة المتناغمة، ببحيرته
الزرقاء الصغيرة الفاتنة ينتشر خلف اكتاف المسيح، مبتسماً، كأنه صورة اخرى
منه، بنفس الطريقة التى تتماثل فيها الأم مع ولدها قالجليل، حاشية بسيطة
متألقة- خارج سياق العهد الجديد. حيث يبدو الهما مسالماً، متعففاً، مرحاً،
مثل اى انسان رائع.

لكن العهد القديم هو الذى كان مصدر اشارة دائمة لى، فقد اقام علاقة
طويلة وعميقة مع روحى. فقد كنت وانا أقرأ هذا النص الفج، احس بصاعقة
الانتقام والشار التى يشتمل عليها هذا الكتاب، والتى تحرق الانسان حين يمد
يده إليه مثل الجبل الذى نزل عليه الرب، وكنت أنبض بالشوق كى اذهب وارى
بعينى، والمس تلك الجبال الكريهة التى ولد فوقها.

ولن أتسى ابداً ذلك الحوار القصير الزخم، الذى اجرته ذات مرة مع امرأة
فى حديقة.

قلت:

-«اشعر بالقرف من الشعر والفن والكتب، فهذه الاشياء كلها تبدو تافهة
بالنسبة لى، انها مصنوعة من الورق، مثلها كمثلى ان تكون جائعاً، لكن بدل
ان تعطى اللحم، والخبز والخمر، تقدم لك قائمة الطعام، فتبدأ بالتهامها مثل
الماعز»

كنت اتحدث بغضب، وكانت المرأة التى تجلس قبالتى شاحبة بخدين

عريضين وغم واسع مثل فلاحه روسية. فأضفت:
- «هكذا تبدو أرواض الملولة قانعة بجوعها هذه الايام.. مثل الماعز»
ضحكت واجابت:

«انك تتحدث معى بفضب، مع اننى متفقة معك. لا يوجد سوى كتاب واحد فقط- العهد القديم-. لانه الوحيد الذى لم يكتب على الورق، انه يقطر دماً، انه مصنوع من اللحم والعظم، الكتاب المقدس بالنسبة لى، مثل الشاى المطعم بالبانونج بالنسبة للناس السذج والمهمومين. لقد كان المسيح يجرى- مثل حمل، ذبح على العشب الاخضر يوم النصح، دون مقاومة، ودون ان يطلق ذلك الشفاء المحب، لكن «يهوه» هو الهى، انه صلب، مثل البربرى الذى ينبثق من البرية الرهيبة وهو يحمل البلطة فى حزامه، وبهذه البلطة استطاع «يهوه» ان يفتح ويدخل»

وخلال لحظات قليلة، اخذت المرأة الشاحبة تتحدث بشكل اكثر رقة:
«هل تتذكر كيف تحدث مع الناس؟ هل رأيت كيف خشع الناس، وخشعت الجبال والارض بين يديه؟ هل رأيت كيف ركعت الممالك على قدمية؟ لقد حاول الانسان ان يصرخ، يبكى، ويقاوم، كى يشخلص منه، لكن «يهوه» كان مثل سكينه غرست بين كتفيه»

هكذا تحدثت السيدة الشاحبة فى تلك الحديقة المقصورة بأشعة الشمس، ومنذ تلك اللحظة اخذت الرغبة تتفجر داخلى للذهاب الى ذلك العرين الذى ولد فيه ذلك الاله المتعطش للدم. وان ادخل اليه، كما يدخل الانسان الى عرين الاسد.

وهذا الصباح، حين كنت اشاهد مدينة «البتراء» العربية والجبال التى تنتصب خلفها، التى يتصاعد بخارها تحت اشعة الشمس، اصابتنى رعدة فرح وخوف، فقد كنت لحظتها ادخل الى عرين الاسد.

أما ميناء «ريشو» Raitho فهو ميناء صغير ساحر فى جزيرة سيناء، تشبه بيوته القليلة على اطراف الساحل، وعلى سطح ذلك البحر الاخضر،

تطفو الزوارق الصغيرة الحمراء والصفراء والسوداء، هدوء ممتع، كانت الجبال تكتسى باللون الأزرق الفاتح، والبحر يفرح برائحته العطرة التي تشبه رائحة البطيخ الأحمر، وقد استدار نحوي رفيعي رحلتى الفنان «كالموهوس» Kaimouhos وهو يضحك، وقال:

- «لقد ارتكبنا خطأ، ألا ترى؟ لقد جئنا الى جزيرة اغريقية، لقد جئنا الى (SIPHNO) (سيفنو)

لكن على البعد تستطيع ان تشاهد اشجار التخييل، وترى جملين يظهران امامك على الطريق بين تلك الاشجار، وكان الجملان يديران رأسيهما نحو البحر للحظة، ويهزان جسديهما وخلال خطوتين او ثلاث خطوات متمايلة، يختفيان بين البيوت،.

مشينا، وقلباننا يتراقصان ونحن نطأ الرمل الناعم، هل يمكن ان تكون هذه الروعة البسيطة الهادئة مجرد حيلة من حيل افكارنا؟ كان الرمل محتلاً بالاصداف البحرية الضخمة، الاصداف البحرية التي اشتهر بها البحر الاحمر. اما البيوت فكانت قد بنيت من جذوع الاشجار التي تستخرج من البحر. ومن المرجان الكلسى والاسفنج، ومن نجوم البحر، والاصداف الفخمة. اما الناس فقد كانوا متألقين، بعيونهم اللوزية، وبشرتهم الداكنة، وجلابيبهم البيضاء المتهدلة. وكانت هناك فتاة صغيرة بلون الشيكولاتة، تلعب على ذلك الشاطئ، الرملى الابيض، وهى ترتدى ثوباً مزيناً باغصان نبات «البوغنفيليه» الأمريكى.

وكان هناك العديد من البيوت الاوروبية المصنوعة، ذات الشرفات والحدائق المتناظرة المتشابهة. اضافة الى بعض علب الفواكه المتناثرة فى الشوارع. وكانت هناك امرأتان تمارسان هواية القراءة تحت مظلتين خضراوين كبيرتين، وكانت بشرتهما البيضاء القاتلة، تجعلك تتلهف شوقاً اليهما.

وشاطنا بعد آخر، وصلنا فى النهاية الى ملحقية سينا، ومن هنا يتوجب عليك ان تتركب الجمال للانطلاق نحو جبل «الطور» الجبل الذى وطأه الله.

هناك ساحة كبيرة. محاطة بصوامع الرهبان، وبيوت الضيافة، ومدرستان أغريقيتان للبنات والاولاد، ومخازن، ومعصرة للزيت، ومطابخ، وفي منتصف الساحة تنتصب الكنيسة. ويتوج كل هذا المشهد، اعظم معجزات هذه البرية، كنيسة «الارشمندريت» «ثيودوسيوس» رئيس دير رهبان «ماتوهيون»، ذلك المكان الدافئ، والمحبيب لقلب كل انسان.

نادراً ما يأتي اليونانيون الى هذه البرية، اما الارشمندريت ثيودوسيوس، ذلك الراهب اليوناني الطويل، العظيم، المتقد حماساً، والذي جاء من «تسيسمس» «Tsesmes» بآسيا الصغرى، فقد استقبلنا، وكأنه يستقبل اليونان ذاتها. لقد استقبلنا بكل طقوس الضيافة الكهنوتية الرائعة التي احبها: ملعقة من الفواكة المعلية، ماء بارد، قهوة وطاولة مكسوة بغطاء ابيض تفوح منه رائحة العطر وكانت الفرحة تضيء وجوه الرجال الذين يقومون على خدمتنا.

كان البحر الاحمر يتألق ويلتسع من خلال النافذة، وفي الجهة المقابلة، كانت جبال طيبة الغارقة في الضوء تتراءى لنا من خلال الضباب، وقد تحدثت مع «الآباتي» رئيس الكهان حول العلامات الثلاث والنخلات العشر، التي ذكر الكتاب المقدس انها وجدت في قرية «ريشو»، حين عشر عليها العبريون بعد ان عبروا البحر الاحمر. وبعد ذلك سألت عن عيون الماء الاثنتي عشر، وقد كانت اسألتي هذه شبيهة باسألتي حول أقاربي عند عودتي الى بلدي بعد غياب طويل. كل هذه الاسئلة الانجيلية-نسبة الى الكتاب المقدس- كانت متناغمة بشكل رائع مع هذه البرية المترامية التي تحيط بنا، والجبال المقابلة لها، حيث يعيش ويسجأهد هؤلاء الزهاد العظماء. وحين عرفت بان بستان اشجار النخيل مازال حياً، وان منابع الماء مازالت جارية، شعرت بمتعة كبيرة.

غالباً ما كنت اتذوق مثل هذه المتعة في حياتي- كأس ماء مع نهاية كل رحلة، كوخ متواضع، قلب انساني حي يعيش في مكان مجهول من هذا العالم، دفء، وحرارة عظيمة بانتظار الغريب. وحين يظهر الغريب عند نهاية

الطريق يقفز القلب بسعادة وسرور، لانه عشر على كائن بشرى. وكما هو حال الحب كذلك يكون حال الضيافة، فان من يعطى يكون هو الاكثر سعادة من المتلقى.

اما الرجال الثلاثة الذين يقودون الجمال. فهم «طعمة»، و «منصور»، و «عودة»، وكانت مهمة هؤلاء الرجال اخذنا الى قصة جيل سيناء، وقد وصلوا بجلايبهم الملوثة، وكانوا يرتدون قبعات منسوجة من وبر الجمال على رؤوسهم، وكان كل واحد منهم متقلداً يطقاناً معلقاً بحزام الكتف. كانوا يبدؤاً بمشركى القوام، نحيلى الارجل، بعيون مستديرة كعيون الصقر وقد قاموا بتحيتنا بوضع ايديهم على قلوبهم، وشفاههم، وجباههم.

كان كل واحد منهم يقود جملة، وكان كل جمل يحمل على سنامه الطعام، والخيمة، والمعاطف العسكرية، والبطانيات، اى عدة الرحلة، فقد كان يتحتم علينا ان نبقى فى الصحراء ثلاثة ايام بلياليها.

لقد تعلمنا بضع كلمات. وهى اهم الكلمات التى لاغنى عنها خلال اقامتنا مع هؤلاء البدو، التى دامت ثلاثة ايام، وهذه الكلمات هى: النار، الماء، الخبز، الله، والملح،

وقد اتى الجمال بهوادجها ذات الاشرطة الارجوانية والسوداء، وهى تشن بسخط، وكانت عيونها الجميلة تلتصع بانفة لارقة فيها.

قال الاباتى آمراً:

«اعطوا الجمال بعض ثمار التمر، كى تحلى اسنانها»

وقام «بوليكاربوس» الشمساس القبرصى الجميل، باحضار التمر فى احدى القفف، وقام بتوزيعه على البدو والجمال.

وانطلقنا فى رحلتنا، حيث غرقنا كلياً فى هذه الصحراء التى لانهاية لها. وقبجأة، وبعد خطوة واحدة من الدير، أصبحت الصحراء تبدو رمادية، مترامية، وقاحلة.

كان ايقاع خطى الجمال المتماوج والصبور، يمتد الى اجسادنا، وكان الدم

ينظم ابقاع حركته مع هذا الاحساس، وحين يفيض الدم ويتدفق، تسرى الروح في جسد الانسان، وكان على الوقت ان يحرر ذاته من المهاجع الرياضية - نسبة الى الرياضيات - التي حشر نفسه فيها، بناء على الذهنية العقلانية الغربية. هنا مع تأرجح «سفينة الصحراء»، يجد الوقت ايقاعة الازلي. حيث يصبح احساساً متدفقاً غير مرئي، انه دوار صوفي خفيف، يحول الفكر الى حلم يقظة وموسيقى.

وبعد احاطة نفسي بهذا الايقاع لعدة ساعات، ادركت لماذا يقرأ الاناضوليون القرآن وهم يتميلون الى الامام والى الخلف. كما لو انهم يركبون جملًا، فهذه الطريقة كانوا يتواصلون مع ارواحهم، فهذه الحركة ذات الوتيرة الواحدة، التي لا تنتهي، سوف نقودهم الى ذلك الفرح الصوفي الصحراوي. كنا قد سرنا لمدة خمس ساعات هلى هذا الرمل الجميل، وعند هذه اللحظة، كانت الشمس قد غربت، وكنا قد وصلنا اخيراً الى سفح الجبل، فتوقف «طعمة»، قائد رحلتنا هذه، واعطى الإشارة الى المعسكر.

«كرور»، «كرور»، جاءت هذه الاصوات من اعماق حناجر الادلاء، فركعت هذه الجمال الى الامام، ثم بشكل مفاجيء سقطت على مؤخرتها، كما تفعل الببوت لحظة انهيارها.

قمنا بانزال الاثقال، ونصب خيمتنا، وركض «عودة» واخذ يجمع بعض الاغصان، واشعلنا النار، بينما قام «منصور» باحضار وعاء، ووضع فيه الارز والزبدة من سلة القش وبدأ يظهر.

كان البرد قارساً، فتحلقنا حول النار، واعد «كالموهوس» نفسه لرسم حيوانات متنوعة على رقعة من الورق، وسألنا

- «فيه كابلان» «هل هناك اسود؟»

وحدق البدو بدهشة وجدل الى الاسكتش الذي رسمه للاسد، وصرخوا.

- «فيه.. فيه»

«فيه تعابين» «هل هناك افاعي؟»

« فيه .. فيه »

كان « طعمة » فى تلك الاثناء يحرك طحين الذرة ويخلطه بالماء ، ثم يشكله باصابعه السوداء الرشيقة ، فى الوعاء ، ومن ثم اخذ يخبزه كما يخبز الخبز غير المختمر .

وسرعان ما اعد الشريد ، وعبقت رائحته ، فتحلقتنا حول الطعام ، وبدأنا الاكل ثم سكبنا الشاي ، ودخننا ، وتحدثنا ، وحين خمدت النار ، ولم يستد باستطاعتنا رؤية شىء ، خلدنا الى الصمت .

كانت هناك غبطة سرية تمتلك روحى ، وقد قاتلت من اجل قمع كل هذه الرومانسية - الصحراء ، العربان ، الخيمة ، البدو - ثم ضحككت بسخرية على قلبى لانه كان يخفق ويرتعش على هذا النحو .

وحين تمدهت فى الخيمة ، واغمضت عيني ، وجدت ان كل تلك الاسرار العميقة الغامضة لتأوهات الصحراء تنسكب فى ذاكرتى ، كانت الجمال المستلقية خارج الخيمة تمضغ ما اجتثته وكنت قادراً على سماع فكيتها تمضغان ببطء وسعادة ، كانت الصحراء كلها تمضغ ما اجتثته مثل الجمال .

ومع فجر اليوم التالى بدأنا رحلتنا عبر الجبال ، الجبال المقفرة ، التى لا ماء فيها ولا حميمية ، الجبال التى تحتقر الانسان وتغتصبه ، وفجأة سمعنا صوت طير حجل برى وهو يضرب بجناحه مطلقاً صوتاً نحاسياً على نتوءات الكهوف الصخرية ، وبين فينة وأخرى ، كان احد الغريبان يحلق فوق رؤوسنا بحركة دائرية وكأنه يريد ان يتشممنا قبل ان يفكر بما يتوجب عليه فعله .

طوال النهار لم يكن هناك سوى ايقاع الجمال والحداء الذى يطلقه « طعمه » ، ولم يكن هناك سوى الشمس التى تكورنا مثل النار ، والهواء الملتهب فوق الصخور وفوق رؤوسنا .

كنا نقتفى اثر تلك الطريق اللانسانية التى سار عليها العبريون قبل ثلاثة آلاف سنة حين هربوا من مصر . هذه البرية التى نعبرها الآن ، كانت مثل ورشة عمل مريعة ، عطش فيها الجنس الاسرائيلى ، وجاع ، وازداد صلابه ، ثم لجأ

الى التزوير. وقد حدثت بعينين نهنتين لاتشبعان فى هذه الصخور، صخرة بعد أخرى، متتبعا طريق الزوابع فى الشعاب، وطابعا آثار كل هذه الجبال الملتهبة المتراصة فى ذاكرتى. وقد تذكرت تلك المرة التى سرت فيها على الشاطئ الاغريقى، كنت قد سرت لساعات عديدة، خلال كهف طبيعى، ملجأ بالرشوحات الكلسية المتدلّية والصخور العملاقة، والتى كانت تتلأأ عاكسة شعاعا قرمزيا على ضوء الشموع. وقد كان هذا الكهف مجرى مستوقفا لاحد الانهار الكبيرة وقد جف هذا الكهف الآن، لان مجرى النهر قد تغير عبر العصور.

لقد لمع فى ذاكرتى فجأة خاطر يقول ان هذا الشعب تحت هذه الشمس الحارقة، الذى نعبره الآن، يشبه بالضبط ذلك النفق. لقد حفر «يهوه» سلسلة الجبال هذه كى يعبر من خلالها، وقبل ان يعبر هذه البرية لم يكن «يهوه» قد حدد بدقة كامل تصوراتيه. وذلك لان شعبه لم يكن قد تحدد بشكل ثابت بعد، لقد كان الاله مبعثراً فى السماء ولم يكن ذا روح واحدة، بل عدة ارواح، وكان مجهولا وغير مرنى وقد نفخ الله روح الحياة فى هذا العالم، وقد تزوج واتحد مع المرأة وقتل، وهبط على الارض مثل البرق والرعد. ولم يكن لشعبه بلد، ولم يكن لهم ارض ينتمون اليها ولا عشيرة.

لكن شيئا فشيئا اخذوا يبادرون للمتحدى، فاخذوا يجوسون هذه المناطق المرتفعة، وقام هذا الشعب برش هذه الصخور بالزيت، وسكب الدم عليها، وقدم لها الضحايا والقربان. ان افضل ما يحبه الانسان يجب ان يقدم قربا للرب، من اجل الفوز بافضل نعمه، لذلك قدموا له اول ابنائهم، لان الابن الاول هو افضل واحب شئ على قلب الانسان.

وشيئا فشيئا، وعبر العصور، ومن خلال الحياة السهلة، اصبح هذا الجنس البشرى اكثر رقة، واكثر تحضرا، لذلك فقد أصبح الهم رقيقا، ومتحضرا لذلك لم يعودوا يقدمون له القرابين البشرية، بل استبدلوها بالقرابين الحيوانية، ولم يعد ذلك الاله الذى لا يدنو منه احد او يراه احد، بل تواضع وقبل بالاشكال

والصبيخ التى يمكن ان تصل اليها عين الانسان، مثل العجل الذهبى،
سفينكسى المجنح، الافعى، والصقر

وهكذا فقد بدأ اله العبريين يخفت ويتلاشى، الى ان ضاع فى هذا الهدوء
والصفاء العظيم لارض مصر. لكن فجأة تدخل غضب الفرعون وخلع العبريين
من جذورهم من هذه الحقول الفنية. والقوا بهم الى هذه الصحراء العربية
القاحلة القاتلة، وهنا بدأ الجوع والعطش، النقمة والعصيان. اعتقد انهم قد
وقفوا هنا ذات ظهيرة، جائعين وظامئين، وأطلقوا صرختهم.

— « هل قدر لنا الله ان نموت على يد ملك ارض مصر، حين جلسنا حول
مناعم الحياة وملذاتها، وحين اكلنا الخبز حتى التخمنا »

ورفع « موسى » يديه ببأس وبشكل بربرى للرب وصرخ:

— « ماذا يمكن ان افعل مع هذا الشعب العاق؟ انهم على استعداد لالتقاط

الحجارة وقتلى! »

وانحنى الرب فوق شعبه واخذ يستمع، احياناً كان يرسل لهم المن والسلوى
ليأكلوا واحياناً اخرى يسلط عليهم سيفه ليببدهم، وفى كل يوم كان ير عليهم
فى هذه البرية كان وجه الرب يصبح اكثر عنفاً، وفى كل يوم كان يقترب من
شعبه اكثر فأكثر، حتى اصبح ناراً فى الليل تتقدم مسيرتهم، وعصوداً من
الدخان فى النهار، الى ان استقر اخيراً فى تابوت العهد، كى يدعه سدنه
الهيكل على الارض، ولا تجرؤ اية روح على الاقتراب منه.

واخذ وجه هذا الرب ينحف باستمرار، واصبح أكثر قسوة واخذ يأخذ مظهر
وشكىل « اسرائيل » واصبح محمداً بشكل ثابت. واخذ يفقد جماهيره
وشعبه، واصبح مجهولاً، ولا وطن له، وتحول الى ارواح غير مرئية تتناثر
فى الهواء، ولم يعد رب الارض كلها، لقد اصبح « يهوه » الاله القاسى،
المنتقم، المتعطش للدم، لقد اصبح رب جنس واحد، الجنس العبرى، لانه مر
بازمنة صعبة، يحارب المصريين، والعماليق، والميديانيين، وهذه البرية. وخلال
هذه المعاناة. القتل المنظم، كان عليه ان يهزم اعداءه كى يحمى نفسه.

هذا الشعب، الذي لا أشجار فيه ولا ماء، هذا الشعب اللاتسانى، الذى نعبره الآن، هو مجرى «يهوه» المريع، من هنا، من هذا الممر، مر «يهوده» وهو يزأر.

كيف يمكنك ان تعرف وتحبس بالجنس العبرى دون ان تعبر هذا الممر، ودون ان تعيش فى هذه الصحراء المرعبة؟ لقد عبرناها خلال مسيرة استمرت ثلاثة ايام بلا انقطاع على ظهور الجمال. لقد جفت حناجرنا من العطش، واصيب صدوغنا بالدوار، واصبحت عقولنا فى دوامة وهى تتبع هذا الشعب الملتف كالافعى، والمتلألئ، والعاصف، كيف يمكن لشعب شُكِّل فى هذا الجو الملتهب على مدى اربعين عاما ان يموت؟ انا، الذى يحب هذا الجنس القاسى الذى لا يرحم كنت مبتهجا وانا انظر الى هذه الصخور القاسية الوعرة، التى شحذت عليها الفضيلة. والارادة، والعزم والعناد، والصبر، والجلد، فوق ذلك كله، الرب، الذى لحمه من لحمهم، والذى يصرخون فيه:

«اعطنا الطعام لنأكل! اقتل اعداءنا! اعطنا الارض الموعودة!»

ويجبرونه ان يطيع هذه الاوامر بالقوة.

ان اليهود الذين استمروا على قيد الحياة، وحكموا العالم من خلال فضائلهم، ونوابيهم، مدينون لهذه البرية. واليوم، فى هذه الحقبة الزمنية المرحلية الهائجة، حقبه الانتقام والعنف، فان اليهود بحاجة ماسة مرة اخرى لان يكونوا الشعب المختار لهذا الاله المفرع المرعب، اله الخروج من ارض العبودية. آه: لم تنفست بعمق هذا الهواء البطولى الازلى.

كيف يمكننا هذه الايام ان نوحّد وجه الهنا المرعب؟ وكيف يمكننا العثور على هذه الكلمة البسيطة التى يمكن ان تحيط بكل جلال الرب، وبكل تناقضاته، تحيط بكرهه وحيبه، بفرجه وحزنه، بقوته العظيمة، وبضعفه الشديد؟ هذا الرب المتعالى المتكبر، يرفق فضائلنا الانسانية، وبنات خوفنا، انه اله الدمار، واله الخلق والابداع فى آن واحد، انه اله الموت واله الحب ايضا، انه الاله الذى يتناسل، ويلاقى، ويقتل، ثم يعود مرة اخرى للتناسل من

جديد، أنه يرقص دائما خلف حدود المنطق، والفضيلة، والامل.
الرب هو هذه الظلمة المجهولة، وهذه القوة المتفجرة المحتملة، التي يمكن ان
تنفجر حتى في ادق القضايا واصغرها.

لقد عبرت هذه الصحراء العربية التي ابدعت الرب، وكانت كل آلام الانسان
المعاصر تضرب بعنف في صدغي. كيف لمجونا نحن ايضا، وكيف خلقنا
المخلص المعاصر، الذي لحمه من لحمنا، ذلك البطل الذي سوف يقودنا الى
الارض الموعودة المعاصرة؟

ان كل مخلص يعظ بالكلمة التي تناسب ابناء جنسه، والعصر الذي ولد
فيه، وبنيتة وصفاته الفردية الخاصة، لكن كل المخلصين هم شئ واحد، انهم
بالكلمة والفعل يعبرون عن نفس الصرخة الخاصة بما هو ادنى مرتبة من
الانسان، والانسان وما هو اسمى مرتبة منه. فالرب يتعذب داخل الاجساد
البشرية، وهو يشقى من اجل اطلاق كلمته، ليزيل الاعياء عن ذاته، لكنه
لا يستطيع، انه يهذى ويتأوه، لكن فجأة، ومن خلال الاوامر العليا التي
يصدرها جسده. المظلم ذي الرؤوس المتعددة، يلد البطل، ماذا يعينى هذا؟
يلد البطل؟ « هذا يعنى انه يصبح بطلا، وما ان تفرع هذه الصرخة المبهمة
بشكل واضح، حتى تنور الذاكرة، لان الرب بحاجة الى الرؤية والى دفعات
قوية لاتكبو الى الامام، على هذه الارض، لبضعة قرون.

ويتحدث البطل، وتشعر كل المخلوقات بالبهجة لانها تدرك من خلاله
صوتها الخاص، وهو يفعل، وكل الكون ينحاز الى جانبه ويريد ان يتبعه وكأنه
يحب ان هذا هو ما يريد، هذا هو الفعل الذي كان يريد ان يقوم به منذ البداية
، أى ان البطل، بمعنى آخر. هو التعبير الفعلى عن الرب، تجاه عصر معين
وجنس معين، انه يعطى التماسك والذاكرة، لخوض الصراع، ويقدم هذا العالم
باكمله كهبة للاتسان. نحن نرى بعينيه، ونحن نسمع فقط ما يسمعه هو اولاً،
ونحن نقنات على فتات مائدته الغنية، مثل الكلاب والمشردين، ونحن
لا نستطيع ان نمر من طريق لم يقم بفتحه امامنا، ولا ان نتلفظ بكلمة لم

يبتدعها. لقد كانت الصخور جافة وقاحلة امامنا الى ان اتى وحسبها، فتدفق الماء الذي انعشنا جميعا. لقد استحالنا الحياة الى سبخة راكدة، الى ان جاء، جاء بروح الثورة، واضطراب الماء، وعلاج المشلولين.

اشياء لاتعد ولا تحصى فجلس فى ظل اللاوجود وتنتظر البطل ليعطيها اسماها، اى يعطيها حياتها وقيمتها. ان كل القلوب، حتى اكثر القلوب تفاهة. تطلق صرختها اللا ارادية:

-«المسنى كى لا احترق، وحتى المحر معك».

تأخذ الهيولى شكلها، ويفقد الانسان خوفه ويصبح اكثر وداعة ولطفًا، ويبدأ يشغل روحه وذاكرته مرة أخرى، وبكل ثقة، ويبدأ بتوسيع وزيادة النصيب والقدر الانسانى بقدر ما يستطيع.

والبطل ليس ظاهرة سماوية غير متوقعة، فجزوره تكون ممتدة فى اعماق الشعب، ويساهم والدان عظيمما الشأن فى ولادة البطل دون ان يعرفا بذلك، ودون معرفة من احد، فان كل جهد من الناس يهدف الى الوصول الى تلك النهاية البعيدة، خلق البطل، المسيح، كى تكتب النجاة للناس.

ويعتقد اليهود ان المسيح سوف يعود ثانية اذا قاموا باعمال جيدة، لكنه لن يأتى، وليس بإمكانه المجد حتى لو اراد ذلك. وحتى لو وقع اليهود فى البلادة والجمود والكفر، ان كل فعل جيد ونبل يجبره على الاقتراب والدنو، وكل فعل شرير وجبان يبقيه بعيداً. لذلك فان المسيح يعتمد على كل الافعال الانسانية، انه يخلق على يد الانسان، وعلى يد كل الناس، الناس الصغار والناس العظماء، ويشكل اكثر دقة وعمقا، نقول ان الخلاص من يأتى على يد المسيح، ولكن على يد فعل كل فرد، الفعل الفردى، والفعل العام الذى يقوم به المجموع.

لكن بالتدريج، ومع مرور الوقت، لم يعد اليهود قادرين على تحمل هذه التعاليم القاسية التى تفرض مثل هذه المسؤولية الملقاه على عاتقهم. لقد ارادوا ان يروا مجئ المسيح خلال فترة حياتهم القصيرة، ويتمتعوا بالفوز

بالخلاص فى هذه الحياة، لذلك فقد اخترعوا مسيحيين مصفرين ملائمين لمكانتهم الخاصة، الاول هو السبت والثانى هو يوم الغفران، حيث يكون بإمكانهم ارتكاب المعاصي، والذنوب، والشهوات، لان كل هذه الاشياء سوف تغفر يوم السبت، حين يأتى ذلك المسيح الاسبوعى، فاذا كانوا فى هذا اليوم طاهرين، وانغمسوا فى صلواتهم، فان كل اخطاء الاسبوع سوف تغفر، وينفس الطريقة كانوا ينتظرون المسيح السنوى، يوم الغفران، الذى يغفر ذنوب العام كله.

ان بطل اى جنس بشرى يضع لنفسه، دائما، هدفا مستحيلا لكن الجماهير سرعان ما تخترع اهدافا ملائمة وفى تناول اليد، يمكن الوصول اليها بسهولة حتى تشعر بالراحة والخلاص.

لكن علينا ان نضع، ودائما المستحيل كهدف لنا، وعلى الجماهير ان تسعى دائما لايجاد الطريق نحو هذا الهدف، وهكذا، تقوم بتكليف حاجتها الماسة، وقوتها من اجل تحقيق هذه الفكرة التى يتعذر الوصول اليها لكن كلما سمت هذه الفكرة كلما سما نبل الجماهير واقتربت هذه الالهة الصغيرة الملائمة من هيئة ذلك الاله المروع غير المرئى

مع ظهيرة هذا اليوم، وكنا على وشك الوصول الى دير سيناء اذ كنا قد تسلقنا هضبة «مدين» ، التى ترتفع خمسمائة متر عن سطح البحر، وذلك بعد ان قضينا الليلة الماضية فى مقبرة اسلامية، حيث قمنا بنصب خيمتنا قرب قبر احد الاولياء (الشيوخ)، وقد استيقظنا عند الفجر على لسع البرد، اذ كان الثلج قد غطى خيمتنا، واكتسى السفح الفسيح امامنا بحلة بيضاء. وقد قمنا باقتلاع سقف الكوخ المحطم الذى يظل المقبرة، واشعلنا النار، وقد شعرنا بالبهجة ونحن نرى السنة اللهب تتصاعد فى الهواء، فتحلقنا جميعا حول السنة اللهب، كى نتدفأ. وجاءت الجمال ايضا، ومدت رقابها فوقنا، بعد ذلك شربنا «الراكى» المصنوع من التمر، وسكبنا الشاي، ثم فرش البدو حصيرة صغيرة من القش على الثلج وركعوا متجهين نحو مكة، وبدأوا يصلون.

كانت وجوههم الطاهرة البريئة التي لوحتها الشمس المستغرقة بانجذاب
صوفى بالههم القطرى البسيط، مشرقة متألقة. وباجلال عظيم، كنت اراقب
هذه الاجساد الثلاثة المهمة الجائعة وهي تجالد من اجل الوصول الى الراحة،
وتحقق ذلك، لقد رأيت هؤلاء الثلاثة، «منصور» و«طعمه» و«عودة»، وهم
ينتقلون الى السماء. وكنت احس بان ابواب الجنة قد فتحت للحظات كي
تسمح لهم بالدخول، ان جنتهم الخاصة، جنة المسلمين، وجنة البدو هي جنة:
الشمس، الجمال الصغيرة، الماشية التي ترعى فى المراعى الخضراء، الخيام
الملونة المصنوعة من وبر الجمال، النساء اللواتي يتبادلن الاحاديث فى الخارج،
وقد طلين ايديهن بالحناء، وعيونهن بالكحل، ووضعن على الخدين شامتين
صناعيتين، ولبسن اساور من فضة حول معاصمهن، وخلائيل من فضة حول
كواحلهن، طعام يغلى، أرز مع لبن، خبز ابيض، حفنة من التمر ابريق من الماء
البارد، ثلاث خيام اكبر من الخيام الاخرى، وثلاثة جمال اكثر نعومة ورقية من
الجمال الاخرى، وثلاث نساء اكثر جمالا من النساء الاخريات. انها خيام وجمال
ونساء «منصور» و«طعمة» و«عودة».

وحين وصلت الصلاة نهايتها، اغلقت الجنة ابوابها، ورأينا البدو الثلاثة
يهبطون على سفح جبل «مدين» ورأونا لمجلس قرب النار بانتظارهم، فتقدموا
وجلسوا قربنا مرة اخرى دون ان ينبسوا ببنت شفه، كي يستأنفوا بصبر وجلد
مهامهم الارضية الحقيرة

كان رفيق رحلتى «كالموهوس» قد نهض واخذ يلعب بالثلج، اما انا فقد
مددت يدي نحو «طعمه» وقلت له بشقة:
«لا اله الا الله، محمد رسول الله»
صعق «طعمه» وذهل، كما لو اننى قد اكتشفت سره، ثم نظرت الى ووجهه
يزهر بالفرح، وصافحنى وشد على يدي

وانطلقنا ، وقد سرت انا و« كالموهوس » على الاقدام ، وذلك لبرودة الجو ،
ولنفاذ صبرنا ، ولاننا لم نعد نحتمل ذلك الايقاع البليد الصبور ، اقصد ايقاع
الجمال .

كانت الجبال الجرانيتية الخضراء والحمراء الجافة ، تتكشف بشكل غريب عن
يميننا وشمالنا ، وبين فينة واخرى كان هناك طائر صغير جميل يطير فوقنا ، كان
الطائر اسود اللون ذو رأس ابيض براق ، وقد أطلق علينا كالموهوس . اسم
« جوكى »

بعد ذلك ظهرت قافلة من الجمال عند نهاية الطريق ، لقد لمعت امامنا للحظة
عند سفح الجبل ، مثل تماثيل منحوتة فى الصخر ، توقفتنا لفترة قصيرة ، وحين
وصل البدو حيونا بشكل حميمى :
« السلام عليكم » .

وحين وصلوا الى قادة قافلتنا الثلاثة ، شاهدناهم وهم يصافحونهم بقوة ،
وينحنون على اكتاف بعضهم البعض ، يتعانقون خذا لخذ ، ويتحدثون مع
بعضهم البعض باصوات هامسة تحمل التحيات الطويلة والمستمرة .
لقد كان هذا اللقاء هو اكثر اللقاءات حميمية التى رأيناها طوال رحلتنا
التى استمرت ثلاثة ايام . فحين يلتقى البدو فى الصحراء ينحنى كل منهم
على الآخر ، ويشد على يده بقوة . وتبدأ هذه التحيات البسيطة التى تعود
الى عصور قديمة بـ : كيف حالك ؟ كيف حال زوجتك ؟ كيف حال جملك ؟ من
اين اتيت ؟ والى اين انت ذاهب ؟ والرجل الذى يسأل يجيب ، وحين ينتهى من
اجاباته يقوم هو الآخر بطرح نفس التساؤلات ، لتبدأ اجابات الرجل الآخر .
وكانت كلمات مثل « السلام . . . » و« الله . . . » من اكثر الكلمات تكرارا فى هذا
اللقاء لانها تحمل معان مقدسة سامية ، يجب ان تتضمنها لقاءات الناس بشكل
دائم .

كنت انظر بعاطفة كبيرة الى اطفال الصحراء هؤلاء، الذين يحملون
تقاليدهم القديمة، وبساطتهم، ونفوسهم القادرة على الادراك والسيطرة على
الامور. انهم يعيشون على حبات قليلة من التمر، على حفنة من القمح، على
كأس من القهوة، اجسادهم نحيلة مرهقة، سيقانهم نحيفة وقوية مثل ارجل
الماعز، وعيونهم وآذانهم متوقدة ومرهقة مثل عيون وآذان الحيوانات.

لم تتغير حياتهم منذ الاف السنين، فزعيمهم من جنسهم يقال له الشيخ
ويرتدى البرنس الاحمر، ويحكمهم بناء على قانون البدو غير المكتوب، وهم
شديدو التمسك بالدين من حيث الامانة على الاشياء، وبامكانك ان تترك اي
شيء في الصحراء، وتصنع دائرة حول ذلك الشيء، تصبح منطقة حراما
لا تنتهك حرمتها.

الخيام هي اماكن سكنتهم الدائمة، اما العرائش والاكواخ الصغيرة التي
يقيمونها على عجل، فلا تبني من اجل السكن فيها وانما من اجل استعمالها
كمخازن لثروتهم المتواضعة مثل : الطحين الارز، القهوة، السكر التوباكو،
وبامكانهم الانتقال الى مناطق اخرى، وترك اكواخهم الصغيرة هذه لعدة شهور،
وتبقى هذه المنازل والاكواخ مناطق محرمة لا تنتهك حرمتها ابدا.

واذا مررت بواحة نخيل لرجل غريب، واكلت من ثمرها وتركت بذور التمر
على شكل كومة حول الشجرة، فان صاحب الواحة النخيل سيسر كثيرا، لانه
احسن لعابر سبيل جائع. لكن اذا وجدت بذور التمر متناثرة بعيداً عن الشجرة
فان صاحب الواحة، سوف يغضب كثيراً، ويبدأ بمطاردة اللص، ويشار لنفسه
بشكل همجي من جماله وماشيته.

انهم اكثر الشعوب فقراً في العالم، واكثرهم كرماء وسخاء. انهم يسافرون
وهم جائعون، ولا يأكلون شيئاً كى يتركوا دائماً بعض الطعام في خيامهم

ليقدموه للزائر الغريب، ولا يستجدون ابداً حتى ولو كانوا جائعين. وفي «ريشو» حدثت بقصة الفتاة البدوية الصغيرة التي كانت تراقب بعض السياح وهم يأكلون، وحين رأوها، وعرضوا عليها بعض الطعام رفضت، رفضت ذلك بكبرياء، وفي اللحظة التالية، اغمى عليها، وانهارت من شدة الجوع.

أن أعظم حب يكنه البدوي، هو حبه للجمال، وقد لاحظت كيف ترتعش شحمة آذان «طعمه»، «منصور» و«عودة»، مباشرة حين يسمعون أي خوار مهما كان بسيطاً ينطلق من أحد جمالهم. كانوا يتوقفون، يسوون السرج، يتحسسون معدة الجمل، ويجمعون أي عشب جاف يجدونه كي يطعموا جمالهم. وفي الليل، كانوا ينزلون السرج عنها، ويغطونها بالاقمشة الصوفية، ويفرشون منشقة على الأرض. وينسخونها عليها، ويزيلون الاوساخ من علقها حبة حبة ويحرص شديد.

وهناك أغنية عربية قديمة تستخدم البلاغة بشكل واضح، للتغزل بهذا الرفيق المحب للبدوي، تقول الاغنية:

«الجمل يسير فوق الرحل ويسير قدماً للامام انه صلب كخشب التاهوت. سناماه راسخان مثل باب الحصن العالي، واثار الخيل على ضلوعه، كأثار بحيرة جافة مليئة بالخصى. جمحمته صلبة كالسندان، حين تلمسها تحس كأنك تلمس مبرداً، هذا الجمل، هو بالضبط مثل قناة منياه بنيت على يد فنان أغريقى ماهر، قام بتغطية ذروتها بالقرميد»

تركنا الجمال خلفنا، وهرعنا نصعد الجبل، نهتز من رغبة التوقع، لاننا استطعنا أخيراً ان نلقى نظرة على الدير، عبرنا بركة ماء راكدة، بعض اشجار النخيل، وكوفاً حجرياً. وفي الاسفل، بعيداً عنا، كان هناك صليب حديدي مستند الى احدى الصخور. واخيرا ها نحن نقرب من الدير.

وفجأة ، صرخ « كالموهوس » ببهجة وهو يقف على قمة الصخرة:
- «الدير!!»

وفى الاسفل وعلى تلك الرقعة المنبسطة من الارض الواقعة بين جبلين شاهقين، ظهر امامنا دير سيناء الشهير، مثل حصن متيع محاط بغابات الثوت، لقد ظهر اخيرا الهدف الذى كنا نسعى اليه من هذه الرحلة. لقد كنت طوال حياتى اتوق الى هذه اللحظة، اما الآن، وقد استطعت أن اقطف ثمار هذا الجهد العظيم وامسكها بيدي، فأننى اشعر بمتعة عظيمة، واشعر انه يجب ان اجلس بهدوء، وبلا كلام، إذ لا داعى للعجلة فى مثل هذا الظرف الفريد.

وللحظة من اللحظات شعرت بدافع يدفعنى للعودة من حيث اتيت، فقد نالت هذه المتعة القاسية تلمع داخلى كى لا اجنى واقتنع بالشمار التى كنت نوق اليها. لكنه، وللأسف، هبت نسمة رقيقة محملة بعطر الاشجار المزهرة كأشجار اللوز، فتقهقرت ثورة روحى، وفاز ذلك الانسان الداخلى الذى يتلطف بقبول البهجة والمتعة. واستأنفت السير قدما نحو الامام، وكان كالموهوس ايضا يركض امامى وهو يغنى.

الآن نستطيع ان نتبين الدير بسهولة. اشجار الثوت، الابراج، الكنيسة واشجار السرو، وخلال برهة قصيرة كنا قد وصلنا الى الحدائق، فوثب قلبى دهشة وفرحاً. ورفعت نفسى فوق السياج ورأيت. رأيت هذه الاشياء التى تتلألأ تحت الشمس، وسط هذه الصحراء، رأيت اشجار الزيتون، اشجار البرتقال، اشجار الجوز، اشجار التين، واشجار اللوز المزهرة الضخمة. دفء لذيذ، اريج وطنيين حشرات عاملة صغيرة.

ولفترة طويلة استمتعت بهذه الابتسامة التى تشرق من وجه «الرب» الذى يحب البشر، والذي خلق من الرمل والماء والجمال البشرى.

الآن، وبعد ثلاثة ايام من مواجهة الوجه الآخر للرب، ذلك الوجه المرعب، العقيم، الوجه الجرانيتى لدرجة اننى قلت لنفسى: هذا هو الاله الحقيقى، النار التى تحرق، والجرانيت الذى لم ينقش رغبات البشر، لكن الآن وانا استند الى

الجدار، فى هذه الجنة المزهرة، عشت اجواء هذه الكلمات الصوفية:
- «الرب دمعہ مرتعشة رقيقة».
يقول بوذا:

- «هناك نوعان من المعجزات: معجزات الجسد، ومعجزات الروح، وانا لا
اؤمن بالاولى ولكننى اؤمن بالثانية».

وقد كان دير سيناء احدى معجزات الروح، فهذا الدير الذى مايزال قائما
منذ اربعة عشر قرنا، كان قد بنى حول نبع ماء فى هذه الصحراء القائظة
الحارة، وسط قبائل السلب والنهب تنتمى الى اديان معادية، ولغات اخرى،
مايزال يتسامى مثل حصن منيع، ويقاوم القوى الطبيعية والبشرية التى
تحاصره

بعد رحلة استمرت ثلاثة ايام، فى هذه الصحراء العابسة، وجدت قلبى
يشب، لحظة مشاهدتى اشجار اللوز المزهرة التابعة للدير، لقد شعرت بان
الضمير الانسانى السامى يتشكل هنا، وهنا تنتصر الفضيلة على الصحراء.
وانا اتجول بين واحات النخيل التابعة للدير، اصبحت انسانا شرقيا، فانا هنا
وسط هذه الجبال الواردة فى الكتاب المقدس، اقف على هذا المنظر الرائع الذى
ورد ذكره فى العهد القديم. حيث يرتفع امامى من جهة الشرق «جبل المعرفة»
المكان الذى ثبت فيه «موسى» الافعى النحاسية. وخلف هذا الجبل مباشرة،
تقع ارض العماليق وجبال العموريين، اما صحراء النقب، وجبال الادوميين،
فانها تمتد شمالا على طول الطريق المؤدى الى صحراء مزاب. والى الجنوب يقع
خليج فاران «خليج العقبة» والبحر الاحمر. واخيرا باتجاه الغرب سلسلة جبال
سيناء، «القمة المقدسة» المكان الذى تحدث فيه الرب الى موسى، وعلى بعد
مسافة قصيرة منه دير «سانت كاترين».

بين الجبال، وعلى ارتفاع ألف وخمسمائة متر، بنى دير سيناء على شكل
حصن مربع، بآبراج وكوى، نظرت الى ساحته العظيمة. كانت الكنيسة تتألف
فى منتصفه، والى جانبها جامع ابيض صغير، حيث يتحد الهلاك مع اخيه
الصليب فى هذا المكان، وحول المكان يلعب هذا البياض، الثلجى الذى يغطى
اكواخ الراهبان، المخازن، وبيوت الضيافة

كان هناك ثلاثة من الراهبان يجلسون فى الشمس ليدخلوا الدفء الى
اجسادهم، وكان صدى كلماتهم يتردد خلال ذلك الهدوء الصباحى العميق. كان
احد الراهبان يتحدث عن الأشياء الغريبة التى رآها فى امريكا: السفن،
الجسور، المدن، والمصانع، وكان الآخر يصف كيف يشرون الحمل على النار فى
بلدته «سيدوريكى»، اما الثالث فقد كان يعدد معجزات القديسة «كاترين»
كيف اخذها الملاك من الاسكندرية الى قمة جبل «سانت كاترين» وكيف ان اثر
جسدها ما يزال باقياً، على الصخرة التى وضع جسدها عليها.

كانت حديقة الدير تلمع تحت الشج والشمس، وكانت اشجار الزيتون تتمايل
بهدوء وثمار البرتقال تتلألأ تحت ظلال اوراقها الداكنة، واشجار السرد تتسامى
بزهد على شكل صف اسود طويل، ان التأمل فى كل هذا، يحدث شعوراً
بالخوف داخل النفس الانسانية، وبيطء، وبشكل متناغم، مثل انسان يتنفس،
يتصاعد اريج اشجار اللوز المزهرة، ليشير حساسية انفك، انفك وفكر.

لقد استغرقت، وتساءلت، كيف استطاع هذا الدير الحصن ان يقاوم كل هذه
العواصف، طوال هذه القرون، ولم يسقط خلال احدى هذه العواصف، منذ
سنوات والتعبير المحكم الذى اطلقه القديس انثونى، ذلك القديس الصلب
المتوحد، ما يزال يشير ويهيج قلبى بحزنه الانسانى العميق:

- «اذا بقيت فى الصحراء، وسكن قلبك وهذا، ثم سمعت فجأة صوت
دورى، فان قلبك لن يعود قادراً على استرداد هدوءه وسكينته»

راهب ناهل صغير، تسلق البرج، وصعد الى المكان الذى كنت اقف فيه.
كان راهباً كريتيماً فى الثامنة عشرة من العمر، واخذنا نتحدث. كانت الظلال

الزرقاء تتماوج في عينيه، ويلتصع شعر لحيتته وخديه الكثيف، كلما وقعت عليه الشمس، وبعد فترة قصيرة، اطل راهب عجوز طيب ولطيف، في العقد الثامن من العمر، من احدى الكوى، وصعد من باب احد الاقبية الأرضية وهو يسير بثقل. واتجه نحونا، كان يبدو متعبا ومرهقا، ولم تعد لديه القوة للرجبة في أى شئ، سواء اكان ذلك الشئ طيبا أم خبيثا. كانت احشائه مثل احشاء «بوذا» التى كان يريد لها ان تفرغ من أى شئ.

جلسنا ثلاثتنا على مقعد طويل في الشمس، واخرج الراهب الشاب حفة من التمر من جيب قميصه وقدمها لنا. فرك الرجل العجوز حبة التمر على ركبته، واخذ يخبرنا عن كيفية بناء الدير، وكيف قاوم وصعد طوال هذه القرون العديدة، وبينما كنت اجلس على هذه الحال، في الشمس، محاطاً بهذه الجبال التى لاتصدق، بدت لى اسطورة هذا الدير، وكأنها حكاية حقيقية بسيطة وساذجة. - «حول البئر الذى جاءت اليه بنات النهر شبيب لسقاية أغنامهن، وفي كل بقعة احترقت فيها هذه الغابات، ولم تتلف، وانما عادت للنمو من جديد، قام «جوستنتيان» ببناء الدير. وفي نفس الوقت ارسل الامبرطور ماث العائلات من «بوتسوس» و«مصر» للاستقرار قرب هذا الدير، ليصبحوا حراسه وخدمه.

بعد قرن من الزمان جاء «محمد» صلى الله عليه وسلم الى هذا العالم، ومُر من جبل سيناء، وماتزال آثار اقدم جملة باقية على رقعة جرانيتية حمراء. وقد دخل الى الدير، واستقبله الرهبان بترحاب عظيم، وقد سُر «محمد» لهذا اللقاء وقدم لهم ميشاقه بصورته الجديدة «الاختيم» - achti - name، حيث مايزال هذا العهد مكتوبا بالحروف الكوفية على جلد غزال الرو، ومختوما بختم النبي.

لقد قدم «محمد» في هذا الميثاق الجديد لرهبان سيناء امتيازات عظيمة وكثيرة، ان أى راهب في سيناء يتخذ ملجأ في الجبال، او في السهل، او يقيم في كهف او حصن صغير، او يقيم في الصحراء، او أى بيت من بيوت العبادة

فإننى سأكون معه، وسأحميه من أى اذى، وسوف أدافع عنه فى أى مكان يوجد فيه، فى البر والبحر، فى الشرق والغرب، فى الشمال والجنوب، ان كل هؤلاء الذين نذروا انفسهم لعبادة الله، فى الجبال وفى الاماكن المقدسة، لايتوجب عليهم دفع الضرائب، او عشر محاصيلهم، ولايتوجب عليهم الخدمة فى الجيش او دفع الجزية. ويجب ان يتركوا ليعيشوا بسلام وامان لان جناح الرحمة يشملهم.

وخلال قرون عانى الدير من لحظات عصيبة، فقد اصبح الخدم الذين ارسلهم «جوستنتيان» مسلمين، ومارسوا التعذيب على الرهبان من اجل انتزاع الطعام والمال منهم، ومن جراء هذا الخوف فقد بقى الباب الكبير مغلقاً بشكل دائم، وكان الرهبان يتصلون ببعضهم البعض من خلال ممرات ارضية تتصل بالحديقة، وماتزال الابواب الحديدية القليلة الارتفاع، والممرات الارضية المظلمة باقية حتى الآن، وماتزال هناك مقصورة كبيرة بحجم سبعة رجال تدعى «توفارا»، حيث كان الناس، وكانت المراد يوضعون فيها، ويرفضون بواسطة بكرة. اما الآن فقد ذهبت سنوات البطولة والرعب، فقد روض اولئك الخدم نوعاً ما، واوقف البدو غاراتهم، وبقي الباب الكبير مفتوحاً دون خوف.

كنت ارتعش وانا استمع الى صوت الراهب العجوز الخفيض، لم يكن هذا الصوت من هذا العالم، كان صوتنا يعيد الجدران البيزنطية الى الحياة، ويجعلها تحيط بى من كل جانب، وبالأجوار بالقدسين والشهداء، اما الراهب الكريشى المتصوف الشاب الذى كان يجلس الى جانبي فقد كان ينصت وهو يغفر فاء الى هذه الاسطورة العجيبة. وفى الساحة الواقعة فى الاسفل، كان الرهبان مايزالون يتداولون الاحاديث القصيرة بهدوء. وكان هناك رهبان آخرون فى الاقبية يعايتون ويزنون القمح التى احضرها العرب، ولبرهة قصيرة فتح باب المطبخ، والقيت نظرة سريعة على الطاولة الكبيرة التى كانت تتألف تحت كسيات كبيرة من جراد البحر التى نقلت الليلة ماقبل الماضية من بحر العقبة وكان الالب «باهوميوس»، الفنان، يجلس على عتبة حجرته، ملتفاً ببطانية،

ويقوم يتلوين صدفة ضخمة.

نهضت، وسرت نازلا نحو الشارع المريض، كان الكهان يلعبون بالثلج، يصنعون كرات من الثلج ويتنافزون بمرح مثل الاطفال لقد كانوا مبتهجين جدا بسقوط الثلج، فالصحراء سوف تعشب، وسوف تجدد النعاج، والشياء، والخراف ما تأكله، ويظل الناس على قيد الحياة.

اما الرجال والنساء الذين انحدروا من سلالات الخدم القدماء فقد وصلوا وتكوموا على عتبة الدير، كان الرجال يدخنون ويتحدثون بصوت عال ويشكل يدل على الغرور، اما النساء فقد كن حافيات الاقدام، قدرات ملتفات بالملاءات السوداء، وكانت شعورهن مربوطة مثل غرة الفرس على جباههن بعد وصولهن مباشرة قامت كل واحدة منهم بفتح ملامتها، واخرجت منها طفلا رضيعا ووضعته على الصخور. وقد تجمع حشد كبير من الاطفال وهم يمدون ايديهم، وينتظرون ال «توفارا» ان تفتح ابوابها كي تلقى اليهم حصصهم اليومية من الطعام. حيث كانت تقدم ثلاثة أرغفة صغيرة لكل رجل، ورغيفان لكل امرأة وطفل. وكان يتوجب على كل فرد منهم ان يأتي شخصا كي يتلقى حصته، وكل يوم يتوجب عليهم ان ينطلقوا من بيوتهم قبل الموعد بساعات، ويسيروا تحت لسع الحر والبرد للوصول الى هذا المكان، هكذا كانوا يعيشون وكانوا يقومون ايضا بجمع ثمار الخروب ويجففونها ويطحنونها ويصنعون الخبز.

وكان المطران، أباتي الدير، وحاكم الصحراء، يتكى على الحائط، ويلقى وهو يضحك ببعض القبعات الملونة التي احتفظ بها للهدايا، باتجاه الاطفال، اما الفتيان العرب فقد كانوا ينفجرون ضاحكين، حين يمسون بهذه الهدايا غير المتوقعة وهي تنزل عليهم من الاعلى، وسرعان ما اخذت رؤوسهم الصلبة السوداء، تهرق بالالوان الصفراء، والحمراء، والخضراء، كل رأس حسب القبعة التي وضعت على رأسه.

كنت انظر الى هؤلاء الاخوة البعيدين بمشاعر عميقة، فمنذ قرون وحتى

الآن، وهم يطوفون حول هذه التخوم البيزنطية، حيث يلتقى اليهم الرهبان
ارغفة خبز النخالة الصغيرة هذه التى تشبه الحجارة لصلابتها، انهم يعيشون
وموتون، وهم يخدمون، ويخيفون هذا الدير.

وقد عدد الرهبان موروثاتهم وتقاليدهم البدائية لى. ولم يتغير شىء على
هذه الموروثات والتقاليد منذ الالف السنين، انهم يعيشون كما كانوا يعيشون
فى عصر «شعيب» حمى «موسى» انهم يتزوجون وموتون، ويفعلون نفس
ماكانوا يفعلونه فى ذلك الوقت، الفتيات فقط هن اللواتى يرعىن الغنم، دون
ان يزعمجهن او يتحرش بهن احد، وحين يقع شابان- شاب وفتاة- فى الحب،
يهربان سراً فى الليل ويصعدان الى الجبل، حيث يبدأ الشاب بالعزف على
القيثار، وتبدأ الفتاة بالغناء. دون ان يلمس احدهما الآخر ابداً، وحين يريد
الرجل ان يطلب يدها لكى يتزوج منها، يذهب الى خيمة «حميه» والدها،
ويجلس فى الخارج وينتظر عودة الفتاة من رعى الغنم، وما ان تظهر حتى
يقفز الشاب، ويرمى ببنسسه فوقها ويفطئها.

وحين يأتى وقت عقد قران الزواج، ويدفع العريس مهر العروس يقوم
«الحموان» والد العريس ووالد العروس باخذ سمفه نخيل، ويقطعانها من
النصف، ويقتسمانها بينهما، وبعد ذلك يقول والد العروس.
- «اريد الف جنيه مهراً لابنتى»

وفى العادة يكون العريس لايملك جنيها واحداً، لكن البدو يفتخرون دائماً
باتباع هذا التقليد اللطيف الخاص بطقوس الزواج.
وما أن يشير «الحمو» الى الالف جنيه، حتى يقف الشيخ على قدميه
ويقول:

- «ان ابنتك تساوى الفى جنيه، والعريس يريد ان يدفع لك هذا المبلغ،
لكن من اجلى، اطرح خمسمائة جنيه»
ويجيب والد العروس:

- «من اجل الشيخ سوف اطرح خمسمائة جنيه»

ثم يبدأ بقية الاقارب بالنهمض وهم يقولون:
- « طرح مئة جنيهه أخرى من اجلى! ومئة أخرى من اجلى! وخمسين جنبها
من اجلى! وعشرين جنبها من اجلى!... »
ويظل الأمر على هذا الحال الى ان يصل المبلغ الى جنيهه وفى تلك اللحظة،
تطلق النسوة اللواتى يطحن القمح داخل الخبقة زغرودة عالية:
- « لو... لو... لو... لو... لو... »

وبعد ذلك ينهض والد العروس، ويقول:
- « حسناً من اجل النسوة اللواتى تطحن القمح، فاننى سأقدم له ابنتى
مقابل نصف جنيهه ».

بعد ذلك يعقد القران، فيأكلون ويشربون ويبذرون كل ما يملكونه فى الليلة
الاولى، وبعد ذلك تبدأ حياتهم اليومية المرعبة فى هذه الصحراء.
لكننا الآن فى عز الظهيرة، وقد ذهبنا الى قاعة الطعام فى الدير، قاعة
ذات اقواس، من طراز بناء العصور الوسطى، بحروف قوطية منقوشة على
الجدران الحجرية والتى قام اللاتينيون الذين عاشوا مع شعبنا فى سيناء
لست سنوات عديدة ببنائها، وكان الاب « باهومبوس » قد رسم رسومات هذه
الجدران بحميمية صادقة، ببساطة طفولية، وما تزال هناك لوحة جدارية رائعة
فى زاوية من زوايا الضرفة تصور المجدى الثانى للمسيح، وتحت اللوحة يوجد
ثلاثة ملائكة يمشون الثلاثون المقدس، وبين اجنحة الملائكة الثلاثة. نرى العالم
السماوى، حيث نرى رجلاً وامراً ينحدران من سلالة الرب.

جلسنا الى طاولة طويلة، فاحضر الطعام، وكان عبارة عن جراد البحر.
خضروات، خبز، والقليل من الخمر. وبدأ الرهبان الذين يبلغون عشرين راهباً
الاكل. دون ان ينيس اى منهم ببنت شفة. وتقدم القارئ نحو منبر الوعظ،
واخذ يقرأ التأويل المعاصر للعهد الجديد. فقرأ « عودة الاسراف ».

وخلال هذه الشهور التى قضيتها هنا، اخترت وعانيت هذا الايقاع للعديد
من الاديرة التى زرتها. حيث تأخذ الوجبة طقسها الاسطورى العظيم الذى

ينطق بها .

قال أحد الحاخامات ذات مرة :

« حين يأكل الانسان الفاضل الطاهر ، فإنه يحضر الرب الموجود في
الفضاء » .

وتبرأت خارجة من الانف ، بدأ المقرئ يشدو ويرتل عن معاناة الولد
المسرف ، وكيف انه دفع لأكل القشور ، وكيف شعر بالحزن ، وكيف شعر ذات
يوم انه لم يعد قادراً على تحمل ذلك ، فعاد الى والده . ومنذ ذلك اليوم لم
يتحرك من بيت والديه البشري والنبيل .

اما ان فقد كنت وسط هذا الجو المسيحي ، المكرس للصبر ، غارقا في
التفكير :

لو كان هناك دير آخر فقط ، احبه لم احببت هذا الدير ، دير أكثر ملاءمة
يتسجم بشكل فعلى مع سمو روحنا الحديث . لو كان هناك دير آخر ، لطلبت
منهم ان يقرأوا ملحقات رائعة ، اضافه احد معاصرينا الى معنى الاسراف :

لقد عاد المسرف الى بيت ابيه ، منهكاً مهزوماً ، ويائساً . وفي الليل حين
تمدد على سريره الناعم لينام ، فتح الباب بهدوء ، ودخل اخوه الاصغر وقال
« اريد ان اغادر ، ان بيت ابي لم يعد يناسبني »

وأخذ الولد الذي عاد هذا المساء مهزوماً ، يقبل اخاه ، ثم اخذ ينصحه :
« هذا هو ما حدث معي ، لكن عليك ان تتصرف هكذا ، لقد هزمت ، لكن
عليك ان تكون أقوى مني ، لاتخجل من نفسك كما فعلت انا ، ولا تعد ابداً
لهذا البيت »

وقبله قبلة الوداع ، وسار معه الى الباب ، وصرخ بفرح :

« ربما اراد ان يغادر البيت ليكون أقوى مني ، ولن يعود ثانية »

هكذا جاءني هذا الهاجس الشيطاني ، بينما كنت أكل مع الرهبان بهدوء ،
وانا ابتسم واستمع الى تلك الحكاية ، لقد انتقل الاسراف الى داخلي ، اما الدير
كان يؤنسني فقد اخذ يهتز من أساساته .

انتهى الغذاء، وجلس الرهبان فى الخارج تحت الشمس، بينما دخلت انا
والاسقف، وحافظ غرفة المقدسات ورئيس الدير الى داخل الكنيسة.
وفى الكنيسة ببهر المرء ويصعق لهذه الثروة، فالجو يزدحم بالشمعدانات
الفضية، والايقونات الذهبية تسمو بابهة وفخامة. والجدران والاعمدة تلمع
باعداد لاحصر لها من الايقونات التى لاتقدر بثمن. وحين فتح حافظ غرفة
المقدسات، صناديق الدخائر الضخمة، كرم المحافظ هذه الكنوز المقدسة امامنا،
وكانت عبارة عن: تذكارات مقدسة، اردية كهنوتية ذهبية، زخارف فخمة فاتنة
من الفن البيزنطى مغطاه بشكل كثيف باللاتى، تيجان تتلأأ بالحجارة
الكرمية. منحوتات عاجية، صلبان ثمينة تعاويذ، وصولجاناات.

كل هذا الكنز الذهبى واللؤلؤى خزن بعيدا فى الصحراء منذ قرون عديدة!
لكن الشيء الأكثر غرابة واعجازا، هو الكنيسة فهى مليئة باكثر
الايقونات البيزنطية اناقة ودقة، ايقونات لم ار شيها لها طوال حياتى، انها
متحف فريد من نوعه لسير القديسين فى العالم، وفى الجزء الثانى من المذبح
هناك رفعة فسيفسائية كبيرة جدا لتجلى المسيح، وعلى الشمال واليمين، نرى
موسى وهو يتحدث مع الرب ويتلقى الالواح، وفى الأسفل الحواريون الاثنى
عشر والرسل السبعة عشر، وفى الزوايا «جوستينيان» و«ثيودورا»

اضاء حافظ غرفة المقدسات الشموع وبدأ يصلى، وبخشوع دينى فتح
التابوت الكبير الذى يسجى فيه جثمان القديسة كاترين، كانت يدها مغطاه
بالاساور والتاج الملكى يزين رأسها ويشعور عميق، قام «كالموهوس» المنجذب
صوفيا لهذا المشهد، بخلع الخاتم من اصبعه وقدمه هدية للقديسة.
وحين وصلنا الى مصلى «الغابة المقدسة»، ودخلنا المكان مثل «موسى»،
حفاة الاقدام.

- «اخلع نعلك من قدميك، لان المكان الذى تقف فيه هو ارض مقدسة».
كانت الارضيات مكسوة بالسجاجيد الثمينة، اما لوحة الفسيفساء
اللامعة المصقولة ليد البشارة فقد كانت تغطى محراب المصلى، وقد كرس هذا

المصلى لعيد البشارة لان هذه « الغابة التي احترقت ولم تمت ولم تدمر » ترمز الى العذراء التي تلقت الرب في جسدھا .

وتحت طاولة المصلی، هناك قطعة رخامية تغطی بقعة معينة، البقعة التي لاحت فیها « الغابة المقدسة » امام عیسی « موسى » : « فی احد الايام، حين كان موسى یرعى القطيع على الجبل، رأى فی الاسفل، وبالقرب من الماء ان هناك غابة تحترق . الا ان النار كانت تتدفق كنبع ماء، لذلك فقد بقيت الغابة محافظة على خضرتها، ومحافظة على اوراقها وبراعمها الصغيرة... »

ودخلنا الى المكتبة، وهی مكتبة مشهورة بمخطوطاتها المنسوخة باليد، وهی مخطوطات مكتوبة بالحروف والمخطوط الاغريقية، والعربية، والكوفية، والسريانية. وقد توقفت لفترة طويلة امام الكتب القديمة، والمآذن الملونة، والمخطوطات الغامضة الساحرة التي لايسیر غورها. فمن يدري، فربما كانت بعض اعمال الكتاب الاغريق مثل « سوفوكليس »، « سافو » و« اسخيلبيوس » التي فقدت اصولها، موجودة ومحفوظة هنا مترجمة الى العربية.

لقد تحدثت مع الاسقف « بورفايرون الثالث » وهو رجل ورج طاهر، ومتعلم، وهو يعيش فی الدير مع الرهبان، ويناضل من اجل أن يعيد لهذا الدير اعتباره الكبير، كما كان فی السابق، وهو يبذل قصارى جهده لاجل هذا القرض. وقد يبرح لى بكل حيلة واندفاع عن خطط الاصلاحات التي ينوی تنفيذها:

« ان ما نفتقر اليه هنا فی هذا الدير بشكل رئيسی هم الرهبان المتعلمون الشباب، فلدينا كنوز عظيمة فی مكتبتنا، ولانستطيع الاستفادة منها، والاجانب يريدون نشر هذه الاعمال، لكننا نحفظ بكنوزنا هذه، آملي ان نتمكن فی اقرب فرصة من نشرها ببلغتنا الاغريقية. كي يشرق عصر التنوير من هنا، من سيناء.. »

لقد ارسلنا الشباب للدراسة من اجل هذا القرض ونحن نعد المدة من اجل ان تكون لنا مطبعتنا الخاصة، ومن اجل اصدار نشرة دورية خاصة بنا. ونحن

نخطط من اجل استضافة بعض اليونانيين الذين يتمتمون بمواهب خاصة، وسوف نوفر لهم كل الظروف الملائمة كي يعيشوا ويعملوا هنا بارتياح وهدوء. نحن نريد ان نفعل كل ما نستطيع، وبالوسائل الحديثة من اجل اتمام المهمة المقدسة لدير سيناء، حتى الآن استطعنا الاحتفاظ بهذه الكنوز التي تراها في هذه المكتبة. وبالرغم من الاخطار، فقد استطعنا ان نحقق ونجّاح كبير الجزء الاول من مهمتنا الا وهو صيانة هذه الاعمال، اما الآن فاننا ننوي الشروع في الجزء الثاني، وهو طباعتها.

نحن نناشد كل اليونانيين: ليأت كل عشاق الكلمة الى هنا لمساعدتنا، وسوف نقدم لهم كل التسهيلات المتوفرة لدينا، وسوف يحققون العظمة والشهرة من خلال تحقيق وطباعة مخطوطاتنا.

ليعرف اليونانيون ان المدن اليونانية الهلينية توجد هنا، فمنذ اربعة عشر قرناً وهي ما تزال قائمة هنا في هذه الصحراء. دعهم يأتون كي يشاهدونا، ويتعرفوا علينا

انظر الى سجل الضيوف، خلال ثمانية وعشرين عاماً، اى من عام ١٨٩٧ الى عام ١٩٢٥ لم يأت الا خمسة وثلاثون من السياح الاغريق الى هنا، لكن انظر الى عدد الاجانب الذين جاءوا الى هنا من اطراف هذا العالم، انظر، مئة وخمسة واربعون انجليزيا، تسعة وستون فرنسياً، ثمانية وخمسون امريكياً، ستون المانيا، قارن بين هذه الاعداد، وبين عدد اليونانيين الذي وصل الى خمسة وثلاثين فرداً فقط. خمسة وثلاثون يونانياً خلال ثمانية وعشرين عاماً»

كانت عيننا الاسقف الطاهرة تومض بشعور عميق، وهو ينظر الى ارض الدير المقدسة، وهي تتلألأ بالاجواء الاغريقية، وماتزال تمارس عملها في وحشة هذه الصحراء مثل الرهبان، السدكتيين.

لم انبس ببنت شفة، فقد كنت قلقاً جداً

الحرب، لم يعد الشباب يأتون الى هنا، هؤلاء الشباب

تقديم العون والمساعدة لهذا الدير. واذا لم ينهرى الشباب لهذا العمل، فإن هذا الدير سوف يسحق بعاصفة مدمرة.

لقد ملأ هذا اليوم قلبي بالهلع. الاردنية كهنوتية مذهبة، اللآلى، صور ملونة للقديسين، الابن المبذر المسرف، كل هذه الاشياء اندمجت فى هذه البنية المقدسة، وفى بوتقة الآلام والمحن.

وخلال الليل، وفى ساعات ما قبل انبثاق الفجر، فى الساعة التى تفرع فيها الاجراس، رأيت هذا الحلم الشرير الأثم:

«لقد بدا لى هذا الدير وهو يصبح بالفجر، لقد دخلوا الى الكنيسة بمزاميرهم، ودقوفهم، بكلايتهم وغرابيلهم، ونصبوا مخيمهم هناك. وقد مدوا حبلاً، من الحاجز الايقونى الذى يفصل المذبح عن الجزء الاساسى من الكنيسة حتى مدخل الكنيسة، وعلقوا بطائياتهم الحمراء والزرقاء، وملابسهم المبلولة. لقد اصبحت وجوه النساء القاسية اكثر عنفاً وضراوة، وتطايرت اوراق طويلة بحروف حمراء من افواههم، «هو المهيمن على الطبيعة يتسامى فوق الطبيعة» وكان هنام القديس «اثاناسيوس» يعظ «مالم تستهوتنا المغريات، ونعائى من الخطايا، فاننا سندخل الى مملكة السماء وجاءت هذه الكلمات من القديس «مارتبنيانوس»: «تقدم يا اخى نحو الصحراء، كى تنجو» اما «ثوروثيوس»، فقد كان ينظر من فوق احد الاعمدة ويعظ: «يا اخى، تغلب على هذا الجسد».

اما الفجر فقد قاموا بتعليق احد الدفوف ذات الاشرطة الحمراء، على ايقونة العذراء، والقوا برداء انشوى عليه بقع سوداء قذرة، على الضريح. وجلست امرأة حيزيون عجوز حواء على عرش الاسقف، لتعلم ثلاثة من صغار الفجر قراءة الطالع. وكان الرجال الشباب يقرعون الطبول ويرقصون، وكان رجل عجوز يعزف على الكمنجة بفرح جتونسى، وفجأة، اختفى كل شىء، ولم يبق الا قرد ليملاً هذه الظلمة المترامية، لقد جلس متربعا، وعلى رأسه طاوية حمراء صغيرة، يحاول بهذوء ان يزيل بذور الرمان الفاسدة».

لقد تسلقنا القمة المقدسة، وذلك الحصن الشاهق الذى رأى فيه «موسى»
الرب وجها لوجه، وتحدث معه. ومن بعد، بدت قمة الجبل الناتئة مثل عرف
خنزير برى.

لقد قال النبىء:

- «لماذا تضع فى الاعتبار الجبال الاخرى بنياتها، وقطعائها، وامتيازاتها؟
هناك جبل حقيقى واحد فقط، انه جبل سيناء، الجبل الذى هبط عليه الرب
واقام فيه».

اما «يهوه» شيخ اسرائيل المرعب، فقد جلس على قمة جبل الاولمب الخاص
بالعبريين، لقد جلس على قمة الجبل مثل شعلة من النار، واخذ الجبل يحترق
بلا لهب، وكما يقول «اثاناسيوس»:

- «لا يلمس احد هذا الجبل، ان كان من يلمس جبل سيناء، سراء اكان
انسانا ام بهيمة، فانه سيموت؛ وكل من يرى وجه الرب سيموت؛ لقد كان الرب،
هو النار السماوية التى تحرق كل شىء، وكان موسى هو الملقط الذى يحمل
جمرة الرب المتقدة».

لقد كان «يهوه» هو هذه النار، وفى هذه الصحراء ذات الارواح التى لاتعد
ولا تحصى، فان الالهية التى تسيطر على هذا العالم كله وتحكمه، تركزت فى
اله قبلى عنيف وجسور، وهاهى حمى جنس بشرى واحد فقط. الا وهو الجنس
العبرى وقد دلل على شخصيته بالنار.

وكل شىء كانوا يلقيون به الى النار، اليه، لاشباع نهم «يهوه» الشره. لم
يكن ذا فائدة، ولقد قدموا لـ «يهوه» اول النار، ابناهم البكر، من بنين وبنات
لقد صعدنا الثلاثة الاف ومئة درجة التى تصعد من سفح الجبل الى القمة
المقدسة وكان الاله يسير خلفى مع «كالموهوس». وكان هذان الفنانان
مستغرقين فى نقاش. كان ذلك الراهب البسيط الودود، الزاهد، يسير ملتصقا
بـ «كالموهوس»، يستمع الى هذا الفنان الذى جاء من ذلك العالم الخارجى
العظيم، حاملا معه معلومات هامة حول كيفية مزج الالوان وكيف صنعت

الالوان الزيتية لتجف بشكل أسرع، وماهى افضل اقلام الكريون للرسم هذه الايام.

مررنا عبر باب قوس مفتوح على تلك الصخور، وفى تلك الايام التى كان فيها الرجال يرتجفون حين يلمسون القمة، كان كاهن الاعتراف يجلس هنا ويستمع الى اعترافاتهم. يقول القائد داود:

« ان من يصعد الى جبل الرب، يجب ان يكون ذا يدين ملوئين وقلب طاهر. والا فانه سوف يقتل.

اما الآن فقد اقرر هذا الباب، ومات كاهن الاعتراف، ولم تعد لدى هذه القمة المقدرة على القتل.

واثناء صعودنا درجات اخرى، مررنا بالكهف الذى رأى فيه «الياس» رؤيته العظيمة: لقد دخل الكهف، ولدهشته سمع صوت الرب:

« انطلق غداً وقف امام الرب على الجبل، وشوف قربك ربح عاتية فتحطم الجبل، وتسحق الصخور، لكن الرب لن يكون فى الريح، وبعد الريح سيحدث زلزال، ولكن الرب لن يكون، فى الزلزال وبعد ذلك يأتى دور النار، ولكن الرب لن يكون فى النار، وبعد النار سوف يهب نسيم رفيق، وفى هذا النسيم سيكون الرب».

هكذا تأتى الارواح دائماً، بعد العواصف، والزلازل، والنيران، يهب النسيم العليل، وهذا النسيم العليل سوف يأتى فى عصرنا، ذلك اننا نمر الآن فى زمن الزلزال.

وحين صعدنا أكثر، توقف «ياهوئوس» وأشار الى صخرة ناتئة وقال:
- « هنا وقف «موسى» فى اليوم الذى قاتل فيه العبريون العمالقة. وخلال الفترة التى كان يرفع فيها ذراعيه عالياً، كان اليهود يحققون الانتصارات، لكن حين بدأ يتعب واخذ يخفض ذراعيه اخذ العبريون يستعدون للهروب، وفى ذلك الوقت جاء كاهنان هما «ارون» و«اور» ورفعا ذراعيه وابقياهما مرفوعين حتى مر كل الاعداء على حد السيف»

لقد غطى هذا الجبل باكمله بأثار اقدام هؤلاء العمالقة الذين كانوا فوق قدرة البشر.

وحسب الروح البريئة الساذجة التى يحملها « باهومبيوس » فان كل هذه الاساطير تفترض احساساً تاريخياً نقياً وطاهراً، وقد تحدث عنهم كما لو كان يتحدث حول مخلوقات ماردة من ايام الطوفان، او ديناصورات، او مخلوقات ضخمة، دون ان تكون هناك اشارة هلع اوشك بادية على وجهة.

حين وصلنا الى القمة بدأ قلبى يخفق بقوة، اذ لم تستمتع حينئذ بمثل هذا المشهد، فقد كانت مدينة البتراء العربية كلها امامنا، مع تلك الجبال الفارقة فى الضباب الازرق الكثيف. والى الخلف كانت سلاسل جبال فيليكس العربية « اللازوردية » وكان البحر الاخضر يلصق مثل الفيروز، والى الغرب كانت الصحراء البيضاء المقفرة، تتبخر تحت الشمس، والى الخلف منها فى المدى البعيد جبال افريقيا.

منظر طبيعى غريب، بلاماء، بلا اشجار، بلا غيوم، منظر مقفر، مثل منظر طبيعى على القمر.

هنا تجد روح الانسان المحبط او الفخور منتهى سعادتها.

دخلنا الى المصلى القائم على القمة، واخذ الاب « باهومبيوس » يحفر الارض باظافره، محاولاً العثور على آثار الجدران القديمة للكنيسة البيزنطية. وكان يشير بانتصار الى الحجارة المنقوشة على الاقواس، وصفوف الشبابيك البيزنطية الضيقة، والصلبان، والحروف والآبار القديمة، كان يبحث بنشاط. وفجأة اطلق صرخة عظيمة لقد اكتشف حمامتين بيزنطيتين بمنقارين مشتركين على قطعة من الرخام، كرمز للروح المقدسة.

لقد ازعجنى ان نرى هذه الروح الطاهرة تسيطر عليه، بمثل هذا الهوس الكثيب فى ايقاف دقائق حياته والتوقف فى أى مكان يمكن ان يتوقف فيه، من اجل العثور على هذا الماضى، رافضاً ترك هذا الماضى يذهب فى حال سبيله. وهنا فوق هذا المكان حيث تحول الاله الى لهب مفترس متذبذب

لا يدركه احد. وجدت روح البحث عن الآثار والصيانة التي يشتمل منها الانسان.

لقد استدرت نحوه وقلت:

«ايها الاب باهومبيوس هل تتصور كيف يمكن ان يكون الرب؟

نظر الى «باهومبيوس» بفزع وفكر للحظة، ثم قال:

«مثل الاب الذي يحب ابنا»

صرخت:

«الا تخجل! كيف تجرؤ ان تتحدث بهذه الطريقة عن الرب القائم على

جبل سيناء؟ فالرب هو النار المستحوذة المسيطرة»

«ولماذا تقول لى هذا؟

«لانه يتوجب عليك ان تتخلى عن كل هذه الاطلال. وتدع الرب

يحرقها، لا ترفع يدك ضد الرب يا «باهومبيوس»!

ارتعد بشكل مفاجئ، وجلس وهو خجل، وفتحنا سلة القش التي تحتوى

على الطعام، وشربنا الخمر، واكلنا الخبز واللحم والبرتقال، وكنت احمل معى

نسخة صغيرة من «هومبيوس»، وبدأت اقرأ الابيات الشعرية السداسية،

وكأننى ارى ان اغيظ الرب. وعندها رأيت سواحل اليونان تمتد امامى والهة

الأوليمب، والاهاتها، وجميع الارواح تهبط وهى تضحك وتتحد مع البشر

الارضيين، ومن هذا الاتحاد، تعطى الولادة، ليس للمخلوقات الضخمة، او

الغيلان، بل للابطال.

بدأ قلبى بالاستقرار، فهنا، فى هذا الدخان الاسود المتصاعد من مواقد نار

اله السامية، يبدأ القلب الوحيد الزاهد بالاستيقاظ، ويصبح اكثر شجاعة ذلك

ان كل الآثام، والشقاىص، والحضارات، والردائل التي يحملها الانسان، تعتبر

اشياء غثة تافهة امام هذا الصراع الرهيب!

واذا حاول اله العبريين المخاتل هذا، ان ينتقد الانسان لتجاوزاته الصغيرة

فى الحياة الاخرى، فإى انسان عظيم هذا الذى يستطيع ان يقف فى وجهه

ليدافع عن نفسه

- «نعم لقد ارتكبت الاثم، لقد سرقت زوجة جاري وبقرته، فقد شعرت بالضعف امام غوايتهما، وقتلت عدوى لانه اراد قتلى، لقد قتلته بيدي هاتين اللتين ترتكبان الآثام وتتعبدان، لقد كذبت لاننى كنت خائفا، لقد كرهت أبى لانه وقف فى طريقى ولم يدعنى أمر، لقد كسرت كل أوامرك وتحديتها لكننى روضت الارض، والشار، والماء، والريح، ولو لم اكن هنا لافتركت الحيوانات البرية والافاعي، لو لم اكن هنا لتعفنت فى المستنقع بفعل العيث والاهمال والخوف، لقد كنت انا الوحيد وسط مستنقع الدم والوحل الذى صرخ وطالب بالحرية، اننى اصرخ، اضحك، اكبو، واسندك كى لاتسقط»
هذا هو النوع من الحوار الذى تخيلت انه سيدور ذلك اليوم على قمة جبل سيناء، فهذه هى حجج وادلة الانسان، وهذا هو الحوار القائم بين الرب والانسان.

لكن «باهوميوس» كان قد انهك، وبدأ الظلام يهبط، فاحس بالبرد، وتقدم نحوى وانهضنى عن الصخرة التى كنت اجلس عليها وبدأنا ننحدر.
اتخذنا ممراً آخر خلال ذلك الشعب المغمر بالثلج وفجأة توقف العربى الذى كان يسير امامنا حاملاً سلة الطعام، وهو منفرج الساقين فوق الثلج وصرخ
بسرور:

- «أسدا»

وركضنا لئلا نرى فرأينا آثاراً كبيرة لحيوان برى متوحش مطبوعة على الثلج،
وأطلق «باهوميوس» صرخة من خلال فكية المشوهين
- «أسد»

وقفز «كالموهوس» من الفرج، لكن العربى اوضح لنا بان الاسود تخاف البشر وتغادر المنطقة فى اللحظة التى تشم فيها رائحتهم، فاستعاد «باهوميوس» توازنه اما كالموهوس فقد شعر بالحزن لافتقاده مثل هذه الفرصة.

ومضيت قدماً، اتتبع آثار ذلك الحيوان ، وانا سعيد، واضعها في ذاكرتي
أن «يهوه» قد مر فوق هذا الثلج، واحس بالرعب، فأخفتني في هذه الصحراء.
والآن، فقد تغلغل هذا الجبل كله في هيثة واحدة، ليست هيثة «موسى»
بالطبع، بل هيثة ذلك الإنسان العامل البسيط الذي لم احب انسانا مثله طوال
حياتي، انه «جورج زوريا» فبالنسبة لى، كان هو الرجل الوحيد الذى سينزل
الآن على جبل سيناء، حاملاً وصايا العشر الجديدة. وزوريا عامل منجم
عجوز، ذو روح مقدامة جسورة، وعقل نير، يرسل كل هذه الاشعاعات
والتصدعات لقد عشنا معاً لمدة شهرين، خلال فترة زمنية عصيبة مليئة
بالمشاكل. وهو الآن بعيد عني، ولايستطيع ان يكتب بشكل منتظم لانه
لايستطيع ان يحمل القلم بشكل جيد، انه يحمله كما يحمل الازميل ويدفعه
بعنف في الورقة.

وذات مرة كتب لى هذه الكلمات، التى مازلت احملها معى في هذه اللحظة
، وانا انزل عن جبل سيناء ، فهى ماتزال محفورة بعمق على لوح ذاكرتي.
-«بناء على قوانينى فانا لا اخاف الرب، وانا لا اخاف الموت لانه لايعنى
شيئاً، مثلى تماماً فانا ايضا لا اعنى شيئاً، وانا لا اخاف عناصر الطبيعة
العظيمة مثل الطوفان، الزلازل، الامراض والنساء، فمهما تفعل هذا العناصر
فاننى اضحك واقول: زوريا، جورج زوريا، انت اعظم عناصر الطبيعة. انا
السندباد البحار، ليس لانى سافرت الى العديد من الاماكن، ولكن لانى
سلبت واغتصبت، وقتلت، وكذبت ولعنت، ولمت مع العديد من النساء. لقد
كسرت كل الوصايا كم هي هذه الوصايا؟ عشرة! لماذا لاتكون هناك عشرون
وصية خمسون، مئة وصية، حتى لا يكون بامكانى كسرها جميعاً وحتى لو
كان هناك رب، فلن اشعر باى خوف من الظهور امامه. لانى (لا اعرف كيف
اشرح لك حتى تفهم) ان كل هذه الاشياء لاتبدو لى انها تحمل اية قيمة.
هناك مثل يقول ان الرب لن يسألك ماذا اكلت. وانا اقول انه لن يسألك
ايضا ماذا فعلت. فلو كان لى ولدان، احدهما حسن السلوك، بيتى ، مقتصد

ويخاف الرب، وكان الآخر متشرداً، محتالاً، شريراً صياد نساء ومخاتلاً، فأننى
ساجمعهما بالتاكيد على طاولتى ولأستطيع التأكد من أن قلبى لن يكون
أكثر قرباً للثانى، بالطبع، لأنه يشبهنى لكن من قال اننى لا اشبه الرب، أكثر
من كاهننا الذى ينحنى ليل نهار كى يجمع المال؟

الرب يجارىنا فى الانهماك فى الصخب، فهو يقتل ويقترب المظالم، وهو
يحب، ويعمل، ويصطاد النساء، انه يفصل نفس ما افعله، انه يأكل ما يريد،
ويأخذ المرأة التى يريد، فحين ترى امرأة تسير على الارض مثل مياه النبع
الباردة تحس بقلبك برفض فرحها، وفجأة تجد ان الارض قد انشقت وابتلعتها،
اين ذهبت؟ ومن الذى اخذها؟ اذا كانت طاهرة فأننا نقول ان الرب هو الذى
اخذها، وان كانت فاسدة نقول ان الشيطان هو الذى اخذها.

لكننى اعتقد ان الرب والشيطان هما شئ واحد

نحن الآن فى صحبة الأب «موسى» فى كنيسة سانت كاترين على ارتفاع
ثلاثة الاف وستمائة واربع وستين متراً فوق سطح البحر. على اعلى قمة من
قمم سلسلة جبال سيناء.

الشمس تخطف البصر، وفى الاسفل نرى البثراء العربية تتبخر، الى اقصى
مكان يمكن أن يصل اليه نظرنا.

الأب «موسى» النحيل، القصير، الطرى العود، هو صاحب السلطة هنا.
هو الذى شيد الطريق المؤدية الى قمة الجبل، واقام الاساسات القوية لهذه
الكنيسة الصغيرة المقامة فى اعلى هذا الشارع الذى نجلس عليه، وهو الآن
يعتنى بببيت الضيافة الصغير الذى زوده بالاسرة، والفحم، والطعام،
والايقونات، والزخارف، والعرق.

كان طعامنا يفل، وكان هناك طائراً حجل قتلا على الطريق، وهما الآن
يشويان على النار، وصديقنا البدوى المحبوب «مزنجى» ينحنى فوقهما
وينكش جمر النار. كان جسده النحيل والقوى يتحرك برشاقة، مليئاً بالحياة
والشباب، اما «باهوميسوس» فقد التسف ببطانية وانحنى مقترباً من

« كالموهوس » وهو يحدق بشوق زائد الى تخطيطات الجبال التى كان « كالموهوس » يخططها على رقعة من الورق.

اخذت رائحة طيرى الحجل المشويين تعبق فى أرجاء الغرفة، أما نحن فقد استندنا الى الحائط، واخذنا ننتظر، كنا نرتجف من البرد والجوع، وكان هناك فرح عظيم يغمرنا.

احضر الاب « موسى » بعض الحلويات، والشاي، والخمر المصنوع من التمر، واحضر بعد ذلك بعض ثمار الجوز واللوز، والعسل، واخيراً احضر بعض شراب العنب الذى حفظه بشكل جيد من السنة الماضية.

والاب « موسى » يجد متعة فى خدمة ضيوفه، فهو يظل يطوف حولهم، يأتى ويذهب فى الكنيسة، يحل حبال السارية التى نصبها على اعلى صخره، ورفع فوقها الراية الاغريقية. ثم يأخذ بندقيته ذات الفوهتين، ويطلق النار، ثم شرع فى ترديد اغنية.

وقد خطر لى ان الانسان الجيد، يمكنه ان يختار مكان عبادته على بعد العديد من الكيلومترات. فهنا يوجد هذا الراهب التحيل المتواضع الذى بنى بيته على هذه القمة العالية الوعرة، وصنع موقده، واشعل ناره، ورفع رايته. لقد قهر كل القوى الشريرة، وقهر الوقار والحزن، واخذ يضحك ويغنى مثل اى راع، واخذ قلبه يخفق لانه يقوم على خدمة رجلين مجهولين بالنسبة اليه. قلت:

« كيف اصبحت راهباً ايها الاب موسى ؟ »

ضحك الاب « موسى » على نفسه بقوة، واجاب:

« كنت اريد ان اصبغ راهباً منذ ان بلغت الثانية عشرة من العمر، لكن الشيطان ظل يضع العراقيل امامى، سوف تقول لى ماهى هذه العراقيل، انا سأقول لك. كان عملى يسير على خير مايرام، وكنت اجمع المال، لكن ماذا يعنى جمع المال؟ انه يعنى نسيان الرب

لقد عملت كساعى بريد، وبائع متجول، وصانع احذية وعملت فى مناجم،

«لافيون» وأخيرا ذهبت الى سكة حديد «اكونيو»، وفكرت بيني وبين نفسي وقلت: ما ان افقد كل نقودي سأذهب لأصبح راهبا. وقد احبني الرب، وقطعت الحبل، وشادرت، وما ان انقطع حبل البالون حتى خلق البالون في السماء. بهذه الطريقة غادرت العالم.

لقد مضى على وجودي هنا عشرون سنة. فما الذي فعلته؟ لقد فعلت ما فعلته في العالم. انني اعمل، اعمل منذ طلوع الفجر حتى الليل، سوف تقول لي، انك تقوم بنفس العمل، لكنني ساقول لك، لا، ليس تماما، انني سعيد هنا، لكن هناك، في العالم، لم اكن سعيدا.

لكن، ماذا اعمل؟ وكيف اعمل؟ انني افتح الطرق كل الطرق، التي مررنا بها هي طريقي، انني افتح الطرق، هذا هو عملي كشعاس، لقد ولدت لهذا السبب، واذا ذهبت الى الجنة فسوف اذهب عبر هذه الطرق. واخذ يضحك ساخرا من آماله:

- «أف، الجنة، بهذه الطريقة يدخل الانسان الجنة؟ اما «باهوميوس» البسيط، الذي كان قد تغذى جيدا، ولف نفسه بالبطانية، فقد قال وهو يرتعش، ويتذمر:

- «سوف تدخلها يا «موسي» سوف تدخلها، لا تقلق يا «موسي» وضحك «موسي» وقال:

- «ولماذا تخاف انت؟ ما عليك الا ان تمسك بالفرشاة الصغيرة، وبعض الالوان، ثم ترسم جنة، وتدخلها.

اما بالنسبة لي فان طريقي لانهاية لها. لانه يتوجب على ان اشق طريقا لكل باب من أبواب الجنة، والا قانني لن ادخلها، لان كل انسان يحاسب باعماله، اما انت واستدار نحو كالموهوس - فسوف ترسم جدارا، وبعض الاشجار وتضيف اليها المياه، وبعض الملائكة، وسف تدخلها انت ايضا مثل باهوميوس، لكن ماذا عنك!

واستدار نحوي بشوق عظيم فاجبت:

- «لقد دخلتها، فالجنة بالنسبة لى عبارة عن جبل عال، وعلى قمته شارع حجري، وعلى الشارع ثمار الجوز والعنب والتمر والخمر وأنا اجلس مع ثلاثة رجال طيبين، نتحدث عن الجنة»

وهكذا مر اليوم ونحن نتحدث، ونأكل، ونشرب ونناقش أسماءنا على الصخور، واخذ البرد القارس يلمسنا فانتقلنا الى داخل الكنيسة الصغيرة. اما الصخرة التى سجد عليها الملائكة جسد القديسة كاترين قبل مائتى عام، فقد تضخمت وارتفعت مثل الرغيف واخذت شكل القديسة الراقدة. كان موسى يحمل شمعه مضاءة، ويرينا آثار رأس، وجذع، واقدام القديسة على الصخرة. لقد وصف لنا حياتها واستشهادها، بهدوء وامتعة وبساطة كما لو كان يتحدث عن الارض: كيف تمطر، كيف ينمو المحصول، وكيف يجنى. ودخلنا الى قبر الراهب، واشعلنا الجمرة، اما صوت الرعد المرعب فقد كان يسمع من مسافة بعيدة جداً.

وفجأة وباحساس عميق، وبفعل هذا التقاء الطاهر، استدار «كالموهوس» نحو «موسى» وقال:

- «ايها الاب موسى، سوف ارسم ايقونة للقديسة كاترين واقدمها هدية لك»

وضحك موسى بهزئ

- «لماذا تضحك؟»

- «لانى مندهش، لاننى سمعت ان كل من يريد ان يرسم ايقونة، فعليه اولاً ان يغسل يديه بالكامل وعليه ان يتوقف عن اكل اللحم. هل تفهمنى؟، وعليك ان تتوقف ايضاً عن التدخين. حينها فقط سوف تصبح الايقونة معجزة وتصبح شيئاً جالياً».

بدأ النقاش يسخن، وشنف «باهوميوس» اذنيه، واخذ يستمع.

فحين كان «باهوميوس» شاباً، وكان فى بداية عمله الفنى، أمسك بفنان ناضج، ابيض اللحية، كى يتلقى العلم على يديه:

- «يجب على الفنان أن يحمل في مخيلته ، وبشكل مستمر حياة القديس الذي يريد أن يرسمه. دون أن يفكر في أى شئ آخر، في الليل، وفي النهار، ولا يتوجب عليه أن يمسك فرشاته ليرسم، الا بعد أن يرى ذلك القديس في الحلم»

وقفز «موسى» مثارا بدافع غريب عميق وقال:

- «الآن سوف أخبركم بشئ لم أبح به لأحد حتى هذه اللحظة. لقد قلنا ان مهمتى هي شق الطرق. اننى اعذب نفسي وأقلقها طوال النهار وأفكر.. باى اتجاه يتوجب على أن اشق الطريق؟ الى اليمين ام الى اليسار؟ واين يتوجب على أن ابني جسرا، وفي اى مكان يتوجب على أن أقيم مصرفا للمياه؟ اننى اتعذب واشقى في هذه المتاهة، وفي الليل، أرى في الحلم المكان الذى يجب أن أشق فيه الطريق ولهذا السبب فإن كل طرقى سليمة وراسخة.

فى هذا الوقت كان الليل قد انتصف، ووصل «فرنجى» وهو مشغل بالبطانيات الثقيلة التى قام بفردھا فوقنا، فاستغرقنا فى النوم. مع الفجر، بدأ برد كبير بالتساقط، فتحنا الباب الضيق، وحدقنا فى هذا الضباب الشديد الذى لا يستطيع الانسان أن يرى شيئا من خلاله كان البرد قارسا، وكان الثلج قد غمر الجبل بشكل كامل.

قال «موسى» مصدرا أوامره وهو يفتح الباب:

- «ضع الغلاية على النار كي تغلى الشاي».

وجاءت مبعرة النار من الخارج،. واخذنا نحضر الشاي. وبدأنا ننشد بعض المزامير، فتسامت ارواحنا، وسرت الحرارة الى دمائنا، وقررنا أن نصنع خروجنا وصرخ «باهومبوس» وهو يرتعد من البرد والخوف:

.. يا اصدقاءى الطيبين، ارسموا شارة الصليب وصلوا».

ورد عليه «كالموهوس» بحسم لاخافته:

- «لاخوف هناك من البرد، وإنما الخوف من هذه الحيوانات المتوحشة الجائعة التى تطوف بالمكان فى مثل هذا الجو، خاصة الدببة»

رسم « ياهوميوس » إشارة الصليب حول نفسه، ثم ذهب الى الداخل ليقدّم احترامه للقديسة كاترين، والتقط بطانية ولفها حول نفسه ثم تبع الركب. كان الثلج فى مستوى ركبنا، وكان البرد يتساقط على قبعاتنا وكنا نضحك ونتقافز كان « موسى » يسير فى المقدمة، وكنا نتبع الممر الذى يفتّحه لنا ببسطاره المرتفع الكبير

ونحن عدنا الى الدبر، كان الفرع يملأ قلوبنا، وكنا نقالب الضير، كما لو اننا نعود ثانية الى بيت أبينا.

فى الليل، كنت اجلس وحيدا فى حجرتى، وكنت اقلب صفحات العهد القديم، وانا مازال اخفى رؤية الصحراء بعمق فى ذاكرتى. وقد بدا لى الكتاب المقدس وكأنه سلسلة من الجبال ذات القمم الكثيرة، التى تنطلق منها صرخات الانبياء الذين ينزلون فوقها وهم مربوطون بالجبال. اما الهييجان فانه يعصف بقلب الانسان الذى يقاوم ويناضل ويدور بين يدي الرب.

وفجأة امسكت برقعة من الورق، وبدأت اكتب هذه الكلمات التى ستفرج عن قلبى.

« صامويل »

النبي القديم الذى يرتدى نطاقا من الجلد، وخرقة مبقعة كان ينظر نحو المدينة فى الاسفل، دون ان يسمع صرخة الرب. كانت الشمس مثل المهماز فوق الافق، وفى السماء، وفى الاسفل كان غليغال الفاسق يثن، وينغرس كالاسفين بين صخور الكرم الحمر، يا شجار نخيلها التى تشبه السيوف، وتبينها الشوكى الناضج.

وصرخ صوت الرب ثانية:

- صامويل، صامويل ايها العبد المؤمن، لقد كبرت الاتستطيع ان تسمعنى؟

ارتعد صامويل، واتحدت حواجبه الكشيفة بالخرقة التى كان يرتديها، اما الحية الطويلة فقد اقشعرت، ورددت اذنائه الصدى مثل صدفتين بحريتين

وهدرت اللعنة فى احشائه مثل هدير بحر مطلق.

وهمهم:

-«اللعنة»

ومد هيكل ذراعيه فوق مدينته الضاحكة المنشدة، التى كانت تظن مثل
عش الدبابير

-«اللعنة على هؤلاء الذين يضحكون، وعلى هذه القرايين الجامحة
الخارجة على القانون التى تضيب وجه السماء». اللعنة على المرأة التى تدرس
الحصى بقبابها!

ايها الرب، ايها الرب، هل اختفت صواعق الرعد من يدك البرونزية؟ لقد
نقشت امراضك السماوية فوق جسد ملكنا المقدس، فسقط على الارض مزبلة
مثل الحلزون، ومنتفخا مثل سلحفاة. لماذا؟ لماذا؟ ما الذى فعله لك؟ انسى
اسألك. اجب احمر كمل الناس من هذا الحزن القاتل، وبعد ذلك، وانتزع المنى
من صلب الرجال واسحقه على هذه الصخور.

وارعد الرب للمرة الثالثة

«صامويل، صامويل» ابق كما انت، واسمع صوتى!

اخذ جسد النبى يرتعش، فانحنى فوق الصخرة الفارقة بالدم، حيث كانت
تنحرق قرايين الرب، وسمع صرخات الرب الثلاث فى وقت واحد، ورفع يديه
عاليا وصرخ:

-«ايها الرب انا هنا!»

-«صامويل، املا قرنك بالزيت النبوى واذهب الى بيت لحم»

-«انها بعيدة، وساقاي واهنتان. لقد ضربنا الارض فى خدمتك لمدة مشة

عام، ايها الرب، حمل هذا الامر رجلا غيры، انا لم اعد قادرا عليه»

-«انا لا اتحدث مع الجسد الذى احتقره ولن أمسسه، اننى اتحدث مع

صامويل!»

-«تحدث ايها الرب، ها انا بين يديك!»

- «صامويل املأ قرنك بالزيت النبوى واذهب الى بيت لحم، اغلق فمك ولا تفتحه ابداً لا تجعل احداً يراففك، ثم أطرق باب جيسى»
- «انا لم اذهب الى بيت لحم من قبل ابداً، فكيف لى ان اعرف باب جيسى؟»
- «لقد وضعت عليه علامة ببصمة إصبعى، اطرق باب جيسى، ومن بين ابنائه السبعة اختر واحداً.»
- «اى واحد منهم ايها الرب، ان عينى غائتمان، ولا استطيع ان ارى جيداً»
- «ما ان تقابله حتى يجأر قلبك بصوت كصوت العجل، هذا هو الفتى الذى يجب ان تختاره، اخرج شعره، واعثر على قمة رأسه وادهنها بزيت الملك ليصبح ملكاً على اليهود، لقد قلت كلمتى!»
- «لكن شاول سوف يكتشف أمرى وسوف يكمن لى فى طريق العودة وسوف يقتلنى»
- «وماذا افعل انا، وماذا تفعل عناينى، انا لا اقدر حياة من يخدمونى بضمن، اذهب!»
- «لن اذهب»
- «امسح العرق عن وجهك، وصحح فكيك حتى لا ترتعشا وانت تتحدث، وتحدث الى الرب، انك تتأتى يا صامويل، تحدث بوضوح»
- «انا لا اتأتى، انا اقول اننى لن اذهب!»
- «تحدث بلطف اكثر، انك تصرخ كأنك خائف، لماذا لا تريد ان تذهب؟ دع صامويل يتلطف ويتحدث، هل انت خائف؟»
- «انا لست خائفاً ان حبيبى لن يدعنى اذهب، لقد مسحت رأس شاول بزيت الملك وعينته ملكاً، لقد احبته اكثر مما احببت ولدى، ونفخت بروحى بين شفتيه الشاحبتين، روح النبوة، روحى، وقد ألقت عليه هذه الروح هالة المجد، انه جسدى وروحى، ولن اخدعه!»

«ولماذا هذا السكوت المريع، هل خوى قلب صامويل؟»
«أنت قادر على كل شيء أيها الرب، لا تلعب معي مثل هذه اللعبة،
أقتلني، فأنت لاتستطيع أن تفعل أكثر من ذلك أقتلني»
وامتلأت عينا صامويل بالدم، وظل معلقا على الصخرة ينتظر
- «أقتلني»

واخذ قلبه يزأر داخله

- «أقتلني»

-صامويل

قائها الرب بصوت أكثر رقة، وكأنه يريد أن يتوصل اليه ويستعطفه، لكن
النبي العجوز ظل يغلى ويتقد

- «إقتلني، انك لاتستطيع أن تفعل أكثر من ذلك، أقتلني»

لم يجب أحد، وهرت الظهيرة، وغابت الشمس، وظهر فتى ذاكن البشرة
حافى القدمين، وتسلق ممر المشاة وتقدم من النبي وهو مرعوب وكأنه يقترب
من حافة الجرف الصخري، ووضع وجبة النبي المكونة من التمر، والعسل،
والخبز وانا ماء صغير، على حافة الصخرة، وولى هاربا وهو يكتنم انفاسه،
وشق طريقه نازلا المنحدر الصخري نحو المدينة واختفى فى حجرة والد.
فانحنت أمه عليه وقبلته.

- «الم يزل هناك؟»

سأله بصوت مرتعش وكررت السؤال:

- «الم يزل هناك؟»

اجاب الفتى

- «ما يزال هناك، ما يزال يتعارك مع الرب»

وغابت الشمس خلف الجبال، وظهرت نجمة المساء، وحومت مثل جمرة من
نار فوق المدينة الآثمة، وقد رأت المرأة الشاحبة هذه النجمة من خلف نافذتها
فاطلقت صرخة قوية:

- «سوف تسقط الآن وتحرق العالم»

وانتشرت النجوم فوق شعر النبی الطویل، واخذت تتحرك وتشلأ، وتدور بانتظام حول اطار دائري غير مرئی. وكان النبی يقف وسط هذه النجوم يرتعش، بينما كانت هذه النجوم تمر عبر شعر رأسه، وتضرب خدمة كأنها حبات برد عملاقة.

«ایها الرب، ایها الرب»

همس بهذه الكلمات مع مطلع الفجر، ولم يستطع أن ينبس بكلمة أخرى غيرها.

ثم اخذ القرن، وصلأه بالزيت النبوی، وامسك بمعكازته كثيرة العقد، ونزل المنحدر. فتحولت ساقاه الى جناحين، ولمعت حبات الندى مثل النجوم على لحيته البیضاء، وكان هناك طفلان يلعبان على عتبة البيت الاول، عندما رأيا ثياب النبی الملونة وعمامته الخضراء، وهما تطيران، فاخذا بالصراخ:

- «لقد أتى.. لقد أتى!!»

واقعت الكلاب فی الزوايا وهي تضع ذیولها بین اقدامها، وخارت بقرة وهي تفرغ رأسها على الارض، وانطلقت عاصفة شديدة لتعبر المدينة من اقصاها الى اقصاها، فانصكت الابواب، وصرخت الالهات واخذن بجمعهن اطفالهن من الشوارع. واخذ صامویل يضرب الحجارة بعصاه، ويخطو خطوات واسعة وغمغم قائلا:

- «احسن كأننى حرب على هؤلاء الناس. مثل كارثة، مثل الرب»

وظهر راعیان وهما يحملان عصاتین طويلتين، على الممر الضيق، وما ان شاهدا النبی حتى خرا على الارض.

- «ایها الرب، مرئی ان اسحق جمجمتيهما، ایها الرب تحدث الى قلبي اننى على أهبة الاستعداد»

لكن لم يتحرك اى صوت فى ذاكرته، فعبر بعنف وهو يلعن بذرة الانسان. لفحته الشمس، وثار دامة من القبار حول قدميه، وغلفته مثل غيمة،

وشعر بالظما الشديد فصرخ:

- «ايها الرب، اعطني ماء»

فأجابه صوت يشبه صوت خرير الماء بجانبه

= «اشرب»

استدار فرأى الماء يقطر من صدع في إحدى الصخور، ويصب في إحدى
القنوات، فانهض بعد فرق لحيته، ووضع فمه على الماء، فتسربت تلك البرودة
المنعشة إلى اخمص قدميه، فاصدرت عظامه النخرة صريرا خاصا

وعاد ثانية إلى الطريق، وغابت الشمس فاستقلى تحت جذع شجرة نخيل
ووضع يده اليمنى تحت خده ونام، وتجمع أبناء آوى حوله وما ان تعرفت هذه
الثعالب على راحته حتى ولت هاربة، وضعت النجوم نفسها فوقه على شكل
سيوف، وافاق عند الفجر، وتابع مسيرته. في اليوم الثالث انفتح الجبل، أصبح
السهل مرثيا، ولاح نهر الاردن وسطه مثل افعى متخممة كسولة ذات جلد
اخضر. ومرت ايام ثلاثة اخرى. وفجأة، لاحت بيوت بيت لحم البيضاء البراقة
من خلف اشجار النخيل.

ومررف حمام فوق رأس النبی، حوم للحظات، ثم فر هاربا تجاه بيت لحم
يملؤه الخوف.

وعلى المدخل الشمالی الكبير الذي كانت تفوح منه رائحة القطيع، ويحج
بالمسولين العميان والمجذومين، وقف الكبار ينتظرون النبی، يرتجفون
ويهمهمون لبعضهم البعض:

- «سوف ينزل الجذام على القرية! الرب لا ينزل على الارض الا لكي يسحق
مخلوقاته»

واستجمع اكبر رجل في المجموعة شجاعته، وخطا خطوة إلى الامام وقال:

- «سوف اتحدث معه»

وصل النبی تلقه غيمة من الغبار، وخرقه تتطاير مثل راية حرب ممزقة
بالية.

- «ما الذى احضرته لنا السلام أم القتل؟»

- «السلام»

هكذا اجاب النبی وهو ید ذراعیه ، و اضاف :

- « اذهبوا الى بيوتكم ، افرغوا الشوارع ، اريد ان أمر بمفردى »

اخليت الشوارع ، واغلقت الابواب ، واندفع صامويل بقوة عبر القرية ، وهو يحدق عن قرب فى الابواب ، ويمرر اصابعه فوقها ، وعند آخر بيت واقع على طرف المدينة استطاع ان يتبين بصمة اصبع بالدم على الباب . دق على الباب ، فاهتز البيت كله لهول الصدمة ، ووقف « جيسى » العجوز على قدميه وهو مرعوب ، وفتح الباب .

- « ييرو - جيسى ، السلام والامان لبيتك ، والصحة لاولادك السبعة ، وربما

ستحل البركة على زوجات ابنائك ، وابنائهن الذكور ، فالرب معك ! »

- « ارجو ان استطيع تحقيق مشيشته » قالها « جيسى » وفكه الاسفل يترجف .

وظهر رجل وملاً مدخل الباب بجسمه ، واستدار « صامويل ليراه وقد شعت عيناه بالبهجة . كان الرجل مارداً ، ذو شعر اجعد اسود ، وصدر عريض ملئ بالشعر ، وساقين قويتين مثل الاعمدة البرونزية .

قال « جيسى » بفخر :

- « هذا هو الياب » ولدى البكر »

كان صامويل فى ذلك الوقت صامتا ينتظر صوت قلبه ، فقال فى نفسه :

- « ربما يكون هذا هو الولد المطلوب ، بل هو بالتأكيد ايها الرب . لم

لا تتكلم ؟ »

وانتظر لفترة طويلة ، وفجأة انطلق صوت مرعب من داخله :

- « لماذا تهمهم ؟ هل المجذبت روحك له ؟ انا لا اريدها انتى ابحت عن القلب ،

واحتقر المنى ، انتى اذن « النقى » مخ العظام - فى العظام ، انا لا اريدها »

قال صامويل آمراً ، وقد شحبت شفتاه :

- «احضر ولدك الثانى!»

وجاء الطفل الثانى لكن قلب النبى ظل صامتا، ولم تتحرك أحشاؤه.
- «انه ليس الولد المطلوب، انه ليس الولد المطلوب، انه ليس الولد المطلوب!»

هكذا ظل يهملهم وهو يدفع جانبا كل ولد من الاولاد الستة، واحدا بعد الآخر، وهو يحدق فى جباههم، وحواجبهم، وشفاههم ويتفحصها بعينيه، ويبحث اكتافهم وركبهم، وخصورهم، وأسنانهم كأنهم اكباش او خراف
وحين انهك من التعب، وقع كالكومة على عتبة البيت وهو يصرخ بغضب
- «ايها الرب، لقد خدعتنى، انت دائما ماكر، وعديم الرحمة، وليست لديك اية رافة او شفعة بالنسبة للانسان، تعال انا صوميل، صامويل يدعوك، يتحدث معك، لماذا لا تتكلم؟

واقترب «جيسى» وهو يرتجف بشدة، وقال:

- «لم يبق سوى ولدى الصغير، ديفيد، انه يرعى الغنم»

- «ارسل من يحضره!»

قال الاب:

= «الياب، واذهب وناد على اخيك،

قطب «الباب» حاجبيه، فامتلا الرجل العجوز رعبا، وقال لولده الثانى:

- «ابيناداب» اذهب وناد على اخيك

لكنه رفض هو الآخر، وكذلك رفض بقية الاولاد، نهض «صامويل» عن العتبة وقال:

- «افتح الباب، ساذهب انا بنفسى.

قال الرجل العجوز متسانلا:

- «هل اصف لك علامات ولادته الموجودة على جسده

كى تستطيع التعرف عليه؟

- «لا، اننى اعرفه قبل ان يعرفه ابوه، وقبل ان تعرفه امه»

وانطلق مندفعاً بقوة يصعد الجبل، وهو يشتم ريتعشر بالصخور، ويصرخ
وهو يندفع كالعاصفة:

- «لا اريد ان.. لا اريد ان..»

وحين وصل صامويل الى شاب يقف بين قطيعه، برأسه الخمرى البراق الذى
يلمع مثل الشمس المشرقة. وقف للحظات، وجار قلبه مثل خوار المجمل،
وصاح آمراً:

- «ديفيد، تعال هنا»

اجاب ديفيد:

- «تعال انت الى هان، لن اترك قطيعى»

- «انه هو، انه هو»

زار صامويل وهو يضغط على جبهته بسخط و غضب، واقترب منه،
يامسكه من كتفيه، وتفحص ظهره، وتفحص ساقيه، ثم عاد الى رأسه.
صاح به الشاب آمراً، وهو ينتزع رأسه من بين يديه:

- «من انت؟ من انت لتفتشنى؟»

- «انا صامويل، خادم الرب، انه يأمرنى ان اذهب فأذهب، ويأمرنى ان
اصرخ فأصرخ، انا قدمه، فمه، يده، وظله على الارض. إنحن!»
وانحنى الشاب، فعثر صامويل على قمة رأسه، ثم سكب الزيت فوقها.
وقال:

- «انا احتقرك، انا لا اريدك، انا احب انساناً آخر غيرك، لكن ربح الرب
مرت فوقى، وهى كما ترى. جعلتنى على غير ارادتى ارفع يدى، وأصب زيت
النبوة على قمة رأسك»
ثم اخذ يصرخ:

- «ديفيد هو ملك اليهود المكرس، ديفيد هو ملك اليهود المكرس، ديفيد
هو ملك اليهود المكرس»

ثم قذف بالقرن المقدس الى الصخر فتفتت.

«هكذا فرقت قلبي ايها الرب، وانا لا اريد ان احيا بعد ذلك!».
واندفعت سبعة غريان من اعماق السماوات، معه وحومت حوله، وانتظرت.
فحل النبي عمامته الخضراء عن رأسه، وفرشها على الارض كالكنف، واقتربت
الغريان بجراحة، فغطى وجهه بالحرقمة المبقعة، ولم يتحرك.
لقد كان العم. «اندرياس» رجلاً قريداً من نوعه في قريته الكريمية. وفي
احد الايام. قدم لى العمر «اندرياس» تعريفاً مخدداً للرب:
- «الرب هو رجل يسافر حول العالم، وبعد ذلك يمسك مسدساً ويقتل
نفسه»

لقد جريت بهرارة اكبر، اكبر من اى وقت لى حياتى رعب امتلاك الرغبة فى
معرفة الاراضى الاخرى، والناس الاخرين، وفى نفس الوقت بهرارة اجبارك على
الرجوع ثانية وترك كل ذلك خلفك. والانسان بحاجة الى قوة عظيمة،
وترويضاً وانضباطاً فوق طاقة البشر من أجل تحمل هذه اللحظات. فالقلب لم
يكن يريد ان يغادر، لقد استعبدته هذه التفاصيل الانسانية الحميمة، انه
يمسك بخناق الناس والاشياء ويصرخ.

كان قلبي يصرخ هذا الصباح وانا اقول وداعاً للدير
كان يصرخ ويقول:

- «لا تفعل ذلك ابداً بعد اليوم!»

كان غراب ادغار آكن بو الاسود يحط على كتفى الايسر ويتشبث به
باحكام، ويصرخ. لقد قلت وداعاً لهذه الايقونات الرائعة، ولاشجار السرو التى
تنسamy فى عزلتها فوق تلك الصخور البعيدة، وللبساتين المزهرة، وللساحة،
ولكل شيء طيب، ثم قلت وداعاً للناس.

وهممت بمقطوعة شعرية لهوميروس:

- «اخفق بسرعة ايها القلب العجوز

لقد عرفت الالم القاس»

نزلت الدرجات، وعبرت الساحة يرافقتى الاسقف، ورئيس الدير، وحافظ

غرفة المقدسات، وظهر «باهوميوس» وهو ملتف ببطانيته.
سأل الاسقف:

— «هل انت بردان يا «باهوميوس»؟ فاجاب:

— «اجل انا بردان ايها المبجل»

وحين تقدم لوداعى، فتح بطانيته، واعطانى رغيقتين صغيرين ساخنين،
موسومين، بختم «سانت كاترين».

— «لقد ارسل ارون هذين الرغيقتين لك زوادة للسفر»

كان «طعمة» يقف بانتظارى مع جملة خارج الدير، قلت وداعاً لهؤلاء
الآباء الرائعين، فلن أنسى مشاعرهم الحميمة، نبيلهم، وضيافتهم. وقبلت يد
«كالموهوس» فقد اراد ان يظل فى سينا، للعمل هناك لفترة اطول، فقد سلبت
هذه الطبيعة السامية للكتاب المقدس ليه، وسرقت عقله وقلبه.
فانفصلنا وقال:

— «ليكن الرب معك»

وبدأت رحلة العودة، ولاحت ألوان الصحراء السماوية، وفتحت الجبال
ابوابها ودخلنا، كان «طعمة» يغنى برقة كأنه يهدد طفلاً صغيراً، ويوقع على
ايقاع الجمل البطيء، اما انا فقد كنت استمتع بهذا السكون، دون ان اتعجل
مغادرة هذه الصحراء الرائقة والشرية.

وفاجأنا الليل ونحن نقترّب من احدى اشجار النخيل، فجمعنا الخشب،
واشعلنا النار، وغلينا الشاي، وسلقنا الارز واكلنا. ثم اشعلنا غلاييننا، واخذ
وجه طمعه يلمع مع كل اضاءة للغليون، كان الوجه نحيفاً وداكناً، وكانت
عيناه البديتان الصغيرتان تلمعان مثل عيني الافعى.

حدقنا فى بعضنا البعض للحظات وضحكنا. لكننا كنا منهكين من التعب،
فاستلقينا قرب بعضنا البعض، واستغرقنا فى النوم.

انطلقنا عند الفجر، وكانت الايام والليالى تمر بنفس الايقاع السماوى، كانت
الجبال تبدو أكثر صرامة وقسوة، وكانت المناطق الشريطية الخضراء محاصرة

بالجرانيت الاحمر، واخذت الاودية تضيق. وفى احد الشعاب لمحا ماء يسيل
عبر غابة صغيرة من الاشجار، وحول الماء اشجار نخيل ومسك، وكان هناك
قطيع من الاغنام يصطف فوق الصخور، وحين مررنا بالراعية، وهى فتاة
بدوية صغيرة، قامت الراعية بتغطية وجهها بيديها النحيلتين، لكننا استطعنا
أن نرى من خلال اصابعها، عينيْن رائعتين مثل عيني الحيوان تومضان وتشحر
كان.

وعند ظهيرة اليوم الاخير، خرجنا من الجبال.
وامتد اللون الوردى الاملس الشاعم امام عيوننا كان يبدو مثل بحر يمتد
امام عيوننا لمسافة عظيمة.
وواصلنا السير، لكن هذا اللون الوردى المتراعى الذى كان يمتد امامنا لم
يكن بحرأ، بل صحراء، فقد كانت الرياح العاتية تهب على داخل هذه اليوم
القرمزية الملتهبة.

حبسنا انفسنا ونحن ندخل العاصفة الرملية، وتوقف غناء « طعمة » فقد
لف برنسة الابيض حول نفسه واندفع للأمام.
وقد اندفع الرمل الى الاعلى بقوة، واخذ يضرب وجوهنا وايدينا بلسعات
قوية. واخذ الجمل يدور حول نفسه غير قادر على حفظ توازنه. وقد استمرت
رحلة العذاب هذه ست ساعات، لكننى كنت فى سرى سعيداً بدخول تجربة هذه
الظاهرة الصحراوية المقيتة.

وفجأة ظهر امامنا على بعد خطوة واحدة فقط، بيوت « ريشو »، الاطفال
الذين يجلسون على الاعتاب، الدخان المتصاعد من اسطح المنازل. وبعد ذلك
الباب العظيم للحقبة الدير، والارشعندريت ثيودوسيوس، الكيميائى العظيم
الذى استطاع بقلبه الانسان، وبجبهه أن يحول هذه الصحراء.

لقد عشت خمسة من اروع ايام حياتى فى ميناء « ريشو » الصغير على
سفينة راسية، اغطس فى الماء، واتمدد على الرمل والتجول تحت اشجار النخيل.
ورقت الاصيل كنت اجلس تحت شجرة نخيل المجيلية مقدسة، وراقب الالوان

المثلثة لجمال الصحراء التي تمتد الى ابعد ما يمكن ان تراه العين. جبال جبال قرمزية، مرمرية، لازوردية.

وقد ياغتتنى اثار غريبة عتيقة وانا اسير على طول هذه الشواطىء الصحراوية العربية، ذكريات قديمة، تعود الى ما قبل تاريخ ولادتى. كانت تهيج بصمت على اعتاب ذاكرتى، مثل الظلال فى «الحادس» - مشوى الاموات فى الميثولوجيا الاغريقية.

فمن حين لآخر، كنت اجد نفسى مدفوعاً بفعل الذاكرة السلفية داخل الى التذكر، والقاء الضوء على وجودى الخاص. وكنت اعتقد اننى استطيع استشراف الماضى، فكل اجدادى ولدوا فى قرية كريتية من اصل بربرى، وحين حرر «نيسيفوروس فوكاس» الجزيرة من العرب، كدس العرب غير النصارى فى بعض القرى، ومن هنا جاء الاسم «بارباروى» الذى اطلق على هذه القرية. وانا احب ان اتخيل ان دمس ليس اغريقيا نقياً، وانما انا انحدر من اصل بدوى، فقد حدث ان تبع احد اجدادى القدماء الهلال وراية النبى الخضراء، وقفز الى سفينة شراعية عربية انطلقت من اسبانيا لتحتل جزيرة كريت. الجزيرة التى تفيض لبناً وعسل، وحين قفز الى الشاطىء جر سفينته معه الى الشاطىء الرملى، ثم احرقها، حتى لا يكون له اى اصل بالتراجع والانسحاب، وهكذا فقد قاتل قتال اليانس، ودفع قرى اليأس فى داخله. كى تكسب المعركة.

وانا اسير على هذا الشاطىء العربى. حاولت أن افك رموز الصرخات المبهمة داخلى، وانا أأتين ملامح وجه اسلافى. ومر الوقت، واخذت السماء تعلق قناديل نجومها العملاقة، حتى هذا الوقت كان الارشمندريت «ثيودوسيوس» مشغولاً على، فقد ارسل بعض البدو للعثور على، وتتبع آثار اقدمى على الرمال.

تناولنا العشاء جميعاً على مائدة صغيرة مليئة بالخيرات بصحبة الارشمندريت. «ثيودوسيوس» وتحدثنا، وطرحنا العديد من الاسئلة التى

توحدت داخله هنا في الصحراء، وقد صاغ هذه الاسئلة بوضوح ودقة. وتحدثت اليه عن المدن العظيمة وعن آلام الانسان المعاصر، عن العمال والمواطنين، وعن روسيا.

ثم انفجر داخلي هاجس شيطاني، الافعى التى تتلوى على شجرة المعرفة وتطلق هسيسها. لكن «ثيودوسيوس» كان ينصت الى باهتمام شديد. قلت له:

- «اذا خرجت من حجرتك الهادئة ايها الاب ثيودوسيوس، والتفتت الى هذا العالم، فان قلبك الدافئ، المحب هذا الذى يحب الجنس البشرى سوف يرتعد من الالم. وستجد ان هناك اشياء جديدة لم تكن موجودة، قبل الحرب، تحاصرك، رعب دينى مظلّم جديد.

فالشعوب بعد الحرب فى حالة هياج، ورياح الدمار تهب على الارض. لقد هبت العاصفة، وهى قادمة الينا، وسوف تجرف فى طريقها العديد من ملامحنا المحبوبة، والعديد من الافكار القديمة، ولن يكون هناك اى خلاص»
- «لن يكون هناك اى خلاص؟»

هكذا كرر الراهب الجملة من بعدى، وهو ينظر الى بألم
- «هناك خلاص واحد فقط، الخلاص الذى نعرفه، ونعد انفسنا له.
هكذا اقلبت قلب هذا الشاسك الرائع، وحولت هدوءه وصفاءه الى قلق مزعج، وبهذه الطريقة رددت اليه فضل ضيافته، لكن بطريقة اخرى.

رسالة

عزيزتى مونثينا

لقد انتهى الحلم، فقد أصبحت اشجار النخيل، اديرة الرهبان، البدر،
والصحراء، كل هذه الاشياء أصبحت خلفى.

ان وصولى الى هذه القارة المظلمة، كان يشبه عودتى الى الوطن. كان
هناك هياج خفى غامض، وذكرى ضبابية يغمرائنى وانا اتنفس الهواء اللاذع،
واطأ هذه الرمال الرمادية الجشعة.

والآن وانا استرجع هذه الرحلة، اجد ان هناك ثلاثة انطباعات قد اثرت فى
بشكل عميق أكثر من غيرها، وهذه الانطباعات هي:
أ- الحدود بين ارض النيل الخضراء والصحراء.

ب- مدافن وادى الملوك فى طيبة

ج- صحراء سيناء.

الحدود، آخر ورقة خضراء تقف منتصبة والصحراء كلها امامها، ومع ذلك
تقاوم ولا تستسلم. انها تجمع آخر قطرة من الندى، وتفتت آخر قطعه من
الارض وتطلع نحيلة، فاقدة للامل، وغير مشمرة، وهذه الورقة الخضراء،
اعطت لقلبي المثال للشئ الافضل فى الانسان.

لقد تذكرت حصن «يومبىي» الرومانى، كان حصن «يومبىي» كله
يحترق، وكانت الحمام تنهمر عليه وتغطيه، وكان الرجال والنساء يركضون
حوله فى نوبة جنونية، كانوا يسكرون بجواهرهم واطفالهم بقرة، ويندفعون
باهتياج للهرب من المدينة.

الرجل الوحيد الذى ظل واقفاً منتصب القامة هو الحارس (الديديان)، كان
يقف فى المكان الذى عين له. كان يقف على ابعد بوابات المدينة، لا يتحرك،
بل يرفع رداءه الذى يلبسه على كتفيه بهدوء، ليحمى نفسه من الدخان
الخائى. وهذا هو الوضع الذى وجد عليه بعد ثمانية عشر قرناً، لقد كان يقف
منتصب القامة يعتمر خوذته، ويمسك بحريته، وقمه مطبق.

لقد كانت الورقة الخضراء على تخوم الصحراء تنتصب امامى تماماً كما

ينتصب هذا الحارس، مما جعلنى أومن وأنا ارتعد أن هذا هو واجبنا، وأن هذا هو مكان الانسان المعاصر.

فى وادى الملوك، اصبحت بالرعب، من مشهد جهد الانسان الذى يذهب سدى لهزيمة الموت وقهره، أن الورقة الخضراء لا تريد أن تموت.

فى الظلمة فى تلك الغرف الخفية تحت ارض الجبل الاصفر، كانت موسيات الموتى تستلقى مثل شرنقة دودة القراشة وتنتظر وصول الربيع كى يكون بإمكانها امتلاك جناحيها. كل هذه الضجة لمواكب الحياة اندفعت امامى من خلال الرسومات الخضراء والحمراء، والصفراء على الجدران ذات الاضاءة الشحيحة المحيطة بالجثة اما الجثة -سواء اكانت لملك ام لكادح- تستلقى وسط تلك الظلال الملونة المحببة، وهو نفسه مجرد ظل، يأكل الظل، يشرب الظل، يزرع حقول الظلال يقطع نهر الظل، وينام مع زوجته، ويلعب...

هذا ما كنت احس به وأنا اتجول فى وادى الملوك يامونتيتا، وهكذا كنت ارى الارض ايضا، تماما كما هو الحال فى هذا الوادى. نحن ظلال، ونتوارث الظلال، نتجمع معاً لفترة وجيزة على الارض، ثم نتحلل ونزول ونختفى، لاجل من اذن تمثل ادوار الحرب والحب على هذه الارض، ونذهب عبر ادوات البشر الذين يأكلون، يعملون، يحبون فكرة ما، يصرخون ويعانقون بعضهم البعض.

وبدلاً من ايجاد اجابة على هذا السؤال، فإن اقواهننا مليئة بالقذارة، ماهو واجبنا؟ واجبنا هو أن نقوم بنفس العملية الدونكشوتيه اليائسة للورقة الخضراء!!

وأنا اتجول عبر الصحراء، عند طرف سيناء، شعرت قلبى ينبض بشكل متناغم، ينبض بعناد كما يدق قاطع الحجارة على الحجر. وهذه هى الطريقة التى سارت من خلالها هذه القلوب عبر هذه البرية منذ ثلاثين قرناً. هكذا دقت ونقشت الله فى الجرانيت. شعب فى قبضة الجوع، والخوف والعصيان، شعب يبطون نهمة شرهة، جلد يرتعد، وقلب يقاوم ويخلق «يهوه» الاله الذى يشبههم.

لقد وجدنا أنفسنا فى جزيرة، كل هذا الذى خلقناه بأدراكنا ووعينا، والذى نفكر فيه ملياً بعقولنا هو جزيرة صغيرة صنعت بالعقل والجسد البشرى داخل هذا المحيط المطلق الفاصل والمظلم، ليس مهماً من أين نبدأ، لأننا دائماً نجد الهاوية فى النهاية. ونحن نبكى، نصرخ، نلعن، نعود للوراء، ونبدأ ثانية عبر طريق جديد. وتقول لأنفسنا، أخيراً هذا هو الطريق الذى لانهائية له، لكننا نجد دائماً الهاوية فى النهاية.

ما هو واجبنا ؟

أن نقف أمام الهاوية بكبرياء، يجب الانبكي ونصرخ، والآنضحك كى نخفى خوفاً، ويجب الانظلل عيوننا يجب أن نقف بهدوء وصمت، ويجب أن نتعلم كيف ننظر الى الهاوية بلا امل او خوف.

هذه هى صرخة الصحراء الشديدة الخطورة، إنه الوجه المعاصر العميق الغور، انه ليس الوجه الرقيق الحلو للمسيح الذى ازهر فى مراعى الجليل، ولا هو وجه «يهوه» القبلى القاسى الملامع الذى ظهر فى قفار سيناء.

لقد ولدت نزاعات جديدة، واتسعت روح الانسان من خلال البصيرة والاله، الملايين من الكائنات البشرية تعاني من الجوع والضللال. ومن خلال عذبيهم ينطلق اتجاه جديد للحياة يأخذ شكلاً ما، كما هو الحال دائماً، استجابة جديدة، وجه جديد لاتدرك اغواره. هذا الوجه اذا ما نجح لى تعزية واسر الانسان، يجب ان يكون شبيهاً بوجهه، يجب ان يكون مثل وجه الكادح الجائع، الذى يعمل، ويشور مع الثورة، هذا الوجه يجب الا يكون قائدا لقبيلة، بل لكل أبناء الجنس البشرى.

ان «الخروج» من ارض العبودية قد بدأ، اننا نعبر الصحراء، ونحن نعاني، ونتذمر، ويقتل كل منا الآخر ونخلق هذا الوجه الذى لاتدرك اغواره، خارج اطار كل الآلهة، لكن صحراء اليوم لاتشبه صحراء سيناء، انها اكثر فظاظة وقسوة، مليئة بالالات، والمدن والناس.

هنا فى مصر شعرت برعدة وانا اتابع هذا «الخروج» الذى أخذ يستيقظ.

ويعمضى كما يمضى الوجه الجديد لهذا الجزء من المسيرة العظيمة الهائلة. لقد استيقظت شعوب الشرق، وانتظمت، وتبادلت الاشارات بينها وانطلقت.

حتى الآن كان شعب مصر ما يزال غارقاً في الطبقات الدنيا المظلمة للحيوانات، لقد كدح، وجاع، وظل صامتا. والآن، بدأ الخروج من دنيا الحيوانات، لقد اكتسبوا صوته وأصبحوا متبصرين، ومنظمين. لقد تسلقوا المستوى الثانى، لقد أصبحوا مالكي بضائع، وتجارا، ورجال اعمال صفاراً وتعلموا كيف يقرأون، لقد طردوا الدخلاء الاجانب الذين كانوا يستغلونهم. وبعضهم وصل الى درجات اسمى. انهم يقتلعون كل شئ، وكل الشعوب الاسيوية والافريقية ادركت معنى اخوتها. وهذه هى اهم الوقائع فى زمننا، ان المسيرة التى يقودونها سوف تسير فيها كل شعوب اوروبا، وامريكا التى عانت واستغلت، ان القارات الخمس وكل الاجناس البيضاء، والصفراء، والسوداء، هى فى حالة ثورة وهياج، وكما هو الحال دائما، هناك عالم جديد، ونظرية جديدة، ونهج مضاد لنهج القادة، يتشكل امام عيونهم، مثل غمامة الدخان خلال النهار ومثل عمود النار فى الليل.

وانا اعبر الصحراء فى سيناء رأيت الخروج الانسانى الجديد. هذه الرؤية، وهذا الانعكاس للصحراء كان ينتصب امامى، مثل كل التجارب المتحركة لرحلتى كلها عبر الشرق.

ذلك الجذ الكثير التسل، النيل، الفلاحون، اشجار النخيل، مقابر الملوك، الصحراء، اشجار اللوز المزهرة، حصن سانت كاترين المقدس، ذلك الغناء الرهبانى الجليل، الضيافة الودودة، لطف الرهبان وعطفهم قرع الاجراس مع اشراقة النهار، لقد تمتعت بكل هذه الاشياء، وما ازال غير مرتاح.

روح الانسان هى ذلك الدغل الذى يحترق ولكنه لا يفنى، لاشئ يستطيع ان يخمدتها، وعقل الانسان مثل تلك «العقرب الصغيرة» للاسطورة الافريقية، سوف تحبين تلك العقرب ياموننتيتا، لقد كانت تقفز داخل طرال الرحلة.

لقد قالت العقرب الصغيرة لى «أنا العقرب الصغيرة لا أتوسل أبدا باسم
الرب، فعندما أريد أن أفعل شيئا، فأنتى سأفعل ذلك الشيء بذيلى».

رقم الايداع ٢٧٧٤ / ١٩٩١

طبعته بمطابع شركة الأمل للطباعة والنشر
الإخوان مورغينلي سابقا ،
تليفون : ٢٩٠٤٠٩٦

هذا الكتاب هو العدد الأول من سلسلة

« كتاب أدب ونقد »

(فصلية / ٤ مرات في العام) -

لنشر الإبداعات الفكرية والأدبية

المتميزة ، التي تضيف زاداً حياً إلى المعرفة

التقدمية والانسانية .

وكتاب « رحلة إلى مصر : الوادي وسيناء »

هو حصاد رحلة طويلة قام بها الكاتب اليوناني

الكبير نيكوس كازانتزاكيس (صاحب زوربا

اليوناني والمسيح يصلب من جديد) مبعوثاً

كمراسل صحفي لإحدى الصحف اليونانية

عام ١٩٢٧ : إلى مجموعة من بلاد المشرق :

تركيا ، سوريا ، فلسطين ، قبرص ،

مصر وسيناء . وجمع كازانتزاكيس حصاد

رحلته في كتب . وقد ترجم الجزء الخاص

برحلته إلى فلسطين ، وصدر بالأردن ،

وقام بالترجمة نفس المترجمين اللذين

يقدمان لنا هذا الكتاب عن مصر وسيناء :

الشاعر الأردني محمد الظاهر والكاتبة

منية سمارة .

« رحلة إلى مصر » تجوال شيق

ممتع ، تمتزج فيه الثقافة بالتاريخ ،

والأسطورة بالرؤى ، والواقع بالشعر ،

والخبرة بالحلم . كل ذلك في استبصار

مرهف بمستقبل المنطقة ودراماتها

الكبيرة .

أدب ونقد



To: www.al-mostafa.com